مقياس فلسفة التاريخ والحضارة

المستوى ماستر واحد

تخصص: فلسفة تطبيقية

الأستاذ المسؤول عن المقياس: د. بن رابح أحمد

a.benrabah@univ-dbkm.dz

الجزء الأول

أولا: محاولة لتعريف " التاريخ" (Histoire).

1- الطابع الإشكالي لمعنى مفردة "تاريخ":

لا ريب أن نقول أنه من أكثر المصطلحات المتميزة بتعدد دلالتها مصطلح ""***التاريخ***"، ويمكن التماس ذلك في مختلف الاستعمالات التي نسمعها أو نقرأها، ويقول عبد الله العروي في بداية كتابه "مفهوم التاريخ" ‹‹ *نذكر كلمات تاريخ/ مؤرخ/ علم التاريخ، ونرى في الحين أن الغموض كامن إذا وضعناها مقابل كلمات أخرى (...) نقصد بالكلمة (تاريخ) شأنين مختلفين: مجموع أحوال الكون في زمان غابر*

ومجموع معلوماتنا حول تلك الأحوال››[1]، هذا التأكيد من طرف العروي له أهميته كونه يضعنا على الأقل أمام ما وقع من أحداث لم تعد موجودة، والمعرفة التي نشكلها حول تلك الأحداث باعتبارها مشكلة لوعينا حول الماضي، وهذا ما يطرح صعوبات ليست بالهينة حول التاريخ. وأكثر و أبلغ من ذلك فإن بول ريكور ينفي إمكانية إيجاد معنى للتاريخ في وقتنا‹‹ إنه لمن الإدعاء زماننا إيجاد جواب لمشكلة معنى التاريخ. فهذا يستلزم كفاءة عالم التاريخ والاجتماع واللاهوت››[2]

وإذا عدنا إلى اللغة العربية وبالضبط في القرآن الكريم، فلا نجد ذكرا لهذا المصطلح، وهذا لا يعني انعدام أو غياب معنى "التاريخ" على الأقل بمعناه الدال على الأحداث الماضية، فالإشارة إلى قصص الأولين من الأنبياء والرسل وحتى شخصيات أخرى *كهابيل وقابيل وذي النون وفرعون*، والأحداث التي عاشتها الأمم كقوم عاد وقوم لوط، والمدن القديمة كعاد وثمود موجودة ومقاصد ذلك متعددة. وأدى هذا في كثير من الأحيان إلى النظر إلى تاريخ البشرية انطلاقا مما ورد في النصوص الدينية ونجد هذا خاصة عند اليهود والمسيحيين*، من هنا يمكن القول أن التاريخ لم يغيب عن وعي الشعوب التي عرفت تفاعلات الديانات التوحيدية، ومن جهة ثانية فإن الأساطير القديمة التي وصلتنا، تحتوي هي الأخرى على إشارات هامة متعلقة بالماضي البشري، وبتكوين العالم وخلق الإنسان.

الأمر المهم هو أن "التاريخ" بالمنطلق العام هو سرد(رواية) وحدث (Evènement) (Récit) هذا السرد وهذا الحدث يتعلق بزمان الماضي، والمشكلة الأولى التي نطرحها هذه الثنائية، هي أنّه ليس كل خبر يتعلق بواقعة وقعت أو حادثة حدثت، صحيح، ومن هنا يجب من الناحية الموضوعية التمييز بين الأحداث الماضية التي وقع فعلا وما يرويه الرواة عن الذي حدث وهذا ما يجعله متصلا بالذاكرة، وهذا ما دفع بول ريكور إلى القول: ‹‹ وبمعنى ما فإن وضع تاريخ معيّن، بما هو ظاهرة تسجيل، ليس من روابط على مقدرة وضع تاريخ، تأريخ، على إمكانية أصيلة للأرخنة وتدوين تاريخ، ملازمة للتجربة الحية، وبشكل خاص للشعور بابتعاد الماضي وتقدير العمق الزمني››[3]، ومادام الأمر على هذا الحال، أي مادام التاريخ مرتبط بالذاكرة فلا يخلو التاريخ من صعوبات وتعقيدات تعزز طابعه الإشكالي.

والاطلاع على معنى "التاريخ" عند الفلاسفة المحدثين والمعاصرين على حد سواء، فالقرن التاسع عشر اعتبر في نظر مفكري الغرب بأنه " قرن التاريخ" بسبب الفيض من الدراسات وما رافقها من تعدد الدلالات لهذه المفردة، حيث وصل الأمر عند كثير من الفلاسفة إلى عدم التمييز بين الوعي والتاريخ، فإذا كان كانط قد ميز بين "العقل الخالص" والعقل العملي" منذ القرن الثامن عشر، فإن القرن التاسع عشر عرف ميلاد مصطلح جديد هو "العقل التاريخي"*. وتميزت الدراسات الفلسفية الكبرى التي ميزت نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين تدور حول التاريخ ونشير هنا فقط إلى نيتشة و أخرين.

2- في معاني التاريخ:

2-1 الأصل اللغوي:

---

[1] عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، م.م.س، ص33.

[2] **Paul Ricœur**, Histoire et vérité, Editions du Seuil, Paris, 2001 , p. 93

. * سيتم التطرق إلى هذا الموضوع لاحقا

[3] بول ريكور، الذاكرة، التاريخ، النسيان، تر جورج زناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط 1، 2009، ص 235.

* و يعد ديلتاي الفيلسوف الألماني (1834 – 1911) هو أول من استعمل هذا المصطلح.

إن الكلمات والمفردات شأنها شأن الكائنات الحية، لها أصولها وبداياتها في الثقافات البشرية عموما، فالمفردة تولد وتنمو وتتطور في مختلف حقول الاستعمالات وبالتالي يصل الأمر ببعضها أن تدخل مجال المعرفة النسقية، من هنا الوقوف عند هذه الأصول يسمح ويساعد على ضبط أكثر للدلالات المختلفة التي أصبحت عليها في ظل الاستعمال الاصطلاحي الحالي، وكلمة " تاريخ " لا تخرج عن هذا المنطق، لذلك الوقوف عن الدلالات الاشتقاقية يبقى إجراء ضروريا من الناحية المنهجية.

لسان العرب جاء فيه التأكيد على أن التاريخ مرتبط بالوقت والتوقيت، أي وضخ تاريخ لحادث أو حوادث ما حيث جاء فيه ‹‹ *التأريخ تعريف الوقت، والتوريخ مثله. أَرّخ الكتاب ليوم كذا، وقّته والواو فيه لغة، (...) وقيل إن التاريخ الذي يؤرخه الناس ليس بعربي محض، وأنّ المسلمين أخذوه من أهل الكتاب، وتأريخ المسلمين أرّخ من زمن هجرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وكتب في خلافة عمر رضي الله عنه، فصار تاريخا إلى اليوم* ››[4]، يتضح إذن أن الفعل أو الاسم عند العرب يشيران إلى الوقت وما يرتبط به مكن أحداث.

إذا كان الحال هكذا في اللغة العربية، فإن اللغات الأخرى ورد فيها مصطلح آخر يشير الكلمة العربية "تاريخ"، ففي اللغة اليونانية استعملوا مفردة "ISTORIA" وتعني المعرفة المكتسبة بالاستقصاء والتحري، بينما في اللغة اللاتينية نجد كلمة "HISTORIA"، وكلمة " HISTOR" تعني الحكيم والشاهد والقاضي[5]، ويقول فرانز روزانطال في شرحه لكلمة إيسطوريا اليونانية: ‹‹ *إن الأصل التاريخي لكلمة Istoria الإغريقية ذو أهمية كبرى. فعندما نشطت الحركة الفكرية والسياسية نشاطا عظيما في الدويلات الأيونية في القرنيين السادس والخامس قبل الميلاد، كان تعبير istoria يقصد به البحث عن الأشياء الجديرة بالمعرفة أي نوع من المعرفة الذي كان يهم كل مواطن في دولة المدينة الواحدة، ألا وهي معرفة العادات والمؤسسات المعاصرة أو الماضية. وسرعان ما أصبحت كلمة Istoria مقتصرة على الأحداث التي رافقت نمو هذه الظواهر، وبذلك ولد تعبير التاريخ بمعناه الشائع* ››[6].

2.2 - المعنى الاصطلاحي:

أ- في الفكر العربي

إنّ المعنى الذي أخذته مفردة " تاريخ " في مؤلفات المفكرين المسلمين، تميزت بتأكيدهم على ارتباط " التاريخ " بالرواية والسرد للأحداث التي عاشها الأقدمون أفرادا كانوا أم جماعات وأمما.

يقول المسعودي (896 – 957 هـــ)عن التاريخ أنه : ‹‹ *رواية أخبار العالم وما مضى من أكناف الزمان من أخبار الأنبياء والملوك وسيرها والأمم ومساكنها* ››[7]. واضح التحول والاختلاف الوارد في تعريف المسعودي مقارنة مع ابن منظور، فهنا لا يتعلق الأمر بالميقات بل انتقال الفكر إلى مستوى آخر

---

[4] ابن منظور، لسان العرب، مادة أرخ http://www.baheth.info/all.jsp?

[5] نقلا عن Dictionnaire de l'Antiquité, page 1075, article Historiographie grecque, édition PUF sous la direction de Jean Leclant, 2005.

فرانز روزانتال، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة أحمد صالح العالي، مراجعة توفيق حسين، مكتبة المثنى، بغداد، ص ص 16-17، نقلا عن وجيه كوثراني، تاريخ التأريخ – اتجاهات، مناهج، مدارس، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط 2، 2013.[6]

[7] المسعودي، ابو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت 346هـ/957م) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، ط4 ، (مصر ، 1964) ج 1 ، ص12 .

وهو رواية الأخبار أو سردها بشكل عام دون التمييز بين الأفراد والأمم. و يذهب وابن خلدون (1332 – 1406 م)، إلى إعطاء نفس المعنى لكن بشكل أكثر شمولية ودقة من التعريف الذي قدمه المسعودي، فالتاريخ عند ابن خلدون يتراوح بين الفن والخبر حيث يقول: ‹‹ *أعلم أنّ فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية، إذ هو يوقفنا أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم* ***فائدة الاقتداء*** *في ذلك لمن يرومه أحوال الدين والدنيا* ››[8] . المهم الذي ورد في هذا التعريف زيادة على اعتبار ابن خلدون التاريخ فنا (يفهم من هذا أنه علم)، تأكيده على الغاية المرجوة من وراء هذا العلم وتتمثل في " الاقتداء " بالماضين. وفي المقدمة دائما نجد تعريفا آخر للتاريخ تتضح فيه علاقة علم الاجتماع أو علم العمران بالتاريخ جاء فيه: ‹‹ اعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لذلك العمران الأحوال مثل التوحش والتآنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض (...) ››[9].

ب ـ المعنى الاصطلاحي في الفكر الغربي الحديث.

في اللغة الإغريقية فإن مصطلح (historia) تعني المعرفة بالتقصي أو البحث كما بينا سابقا، أو البحث عن الأشياء الجديرة بالمعرفة، ويرد ظهورها البعض إلى القرن السادس ق.م، أما في التقاليد الألمانية فإنهم يستعملون كلمة (Geschichte) للإشارة إلى كل ما يتعلق بالتاريخ – الماضي.

انطلاقا مما قيل سابقا لا يمكن اعتبار كل ماهو متصل بالزمان الماضي "تاريخ"، بول ريكور يميز بين الزمان التاريخي و"أشكال أخرى للزمان" حيث يقول: ‹‹ *يقابل ديالكتيك الفضاء المعاش والفضاء الهندسي والفضاء المأهول ديالكتيك للزمان المعاش والزمان الكوني والزمان التاريخي*››[10]، فالزمان التاريخي ليس هو الزمان النفسي الذاتي الذي نعيشه داخليا، ولا الزمان الكوني الذي يخضع إلى حركة الكون، بمعنى أنّ ‹‹ *الزمان والتاريخ لا يسيران كما نعرف (...) إن الجزء الأعظم من تجارب الماضي تبقى في غير متناول المؤرخ*››[11]، فزمان الأحداث وزمان التاريخ غير متطابقين، لأنه كما يذهب إلى ذلك ريكور مستندا إلى أعمال بنفينيست فإن زمان التاريخ يتم من خلال إرجاع كل الأحداث إلى حدث مؤسس يحدد محور الزمن[12]، وبالتالي فإن الاعتماد على التقويم يسمح بصناعة الزمان التاريخي، ولهذا السبب نجد المؤرخين يميزون بين المصطلحات التي يشيرون بها إلى مختلف الفترات الماضية كالفترة والمرحلة والحقبة أو العصر مثل العصر الإسلامي والعصر المسيحي، عصر النهضة، والقرون ...إلخ، وفي هذا الإطار العام يميز ميشال دو سارتو (Michel de Certau)* بين التاريخ المكتوب والتاريخ الشفهي أي ما تناقلته الأجيال[13]، ومع تطور المعرفة أصبح التاريخ يجمع بين الممارسة والخطاب، ويشرح ذلك كما يلي: ‹‹ أنا أفهم التاريخ تلك الممارسة ونتيجتها، أو العلاقة بينهما على صورة مُنْتَج، (...) فالتاريخ هو تفسير ما

---

[8] ابن خلدون، المقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2004، ص 21.

[9] ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر، ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2004، ص 47.

[10] بول ريكور، الذاكرة، التاريخ، النسيان، م.م.س، ص 234.

[11] **Michèle Riot-Sarcey,** https://doi.org/10.4000/rh19.414. Temps et histoire, Revue d'histoire du XIX siècle.

[12] انظر بول ريكور، الذاكرة، التاريخ، النسيان، ص 234.

* فيلسوف ولاهوتي ومؤرخ فرنسي (1925 – 1986).

[13] انظر Michel de Certeau, L'écriture de d'histoire, Gallimard, 1975, pp 14-15.

يقال حول الحدث الذي وقع. فالتسمية "تاريخ" إذن وضعية تقارب متميزة بين الإجراء العلمي والحادثة التي يدرسها ››[14].

3.2 – من التاريخ إلى علم التاريخ:

وتجدر الإشارة إلى أنّه على عكس ما كان موجودا عند المسلمين، فإنّ التاريخ لم يكن في أوروبا حتى القرن السابع عشر انشغالا علميا، وذلك راجع لأسباب لازمت الوضع الفكري آنذاك. فمع تجدر قوالب الفكر الكنسي وسيطرة التصور اللاهوتي للتاريخ، وانهماك الملوك في إدارة المناورات والحروب، فما كُتِب في الشأن التاريخي لا ينفصل عن الصورة التي رسمت حدودها هذه الوصاية الدينية-السياسية، وهو في حقيقته تاريخ ديني أو تـأريخ لبطولات ومغامرات وأفراح الملوك والأمراء. وإذا ما نظرنا إلى الأعمال الفلسفية كما وجدت في النظريات السياسية، خاصة منها إسهامات توماس هوبز(1588- 1679)(Thomas Hobbes)، فإن مكانة علم التاريخ مستبعدة لأسباب ارتبطت بالرؤية الفلسفية ذاتها، ومن أهمها الطابع الجزئي الذي تتميز به الأحداث التاريخية، حيث اعتبرت حسب بينوشي (Binochet) - في كتابه المنابع الثلاثة لفلسفات التاريخ **(1764-1798)**- مشوشة على الغرض العام الذي أراد تحقيقه هوبز وهو *المجتمع المدني المستقر<< فلأن التاريخ يثور (s'affole) بدلا من أن يبحث عن أسس التبصر كعقلنة تجريبية للفعل السياسي، فإن هوبز يبعد ببساطة هذه المَهَمة خارج المعقولية الحقة التي لا يجب أن تعتبر سوى التعميمات المنهجية والضرورية* >>. وفي الفكر الإنجليزي دائما لم يميز ف.بيكون (1561- 1626) بين التاريخ والتجربة باعتبارها ممارسة للحكمة العملية << *وبهذا، إننا نجعل من التاريخ والتجربة شيئا واحدا هو ذاته* >>، وهذا ما يمنعه أن يكون علما. من هذا المنطلق مُنِحَ للتاريخ دورا اعتباريا (تقييميا) يكون من خلاله موجها لسلوك الحكام اعتمادا على تجارب الماضي.

وبسبب ما حصل من تغيرات مست مختلف النشاطات خاصة منها الفكرية، شهد القرن الثامن عشر بدايات الاهتمام بالتاريخ وتأكدت ضرورة إخراجه من التهميش الذي كان يعاني منه، وازدادت محاولة البحث عن الإجراءات التي تجعل منه معرفة موضوعية. وفي هذا الصدد كتب دالامبير (Jean Le Rond D'Alembert)(1717-1783) في *موسوعة العلوم<< إنْ لم يكن موجها بالفلسفة، فإنّ علم التاريخ هو آخر المعارف الإنسانية. فالدراسة تكتسب أهمية أكثر لو كتب القليل عن تاريخ الرجال، عوض أن يكتب بهذا الحجم حول بذخ الملذات والضعف* >>[15]. فالمبادرات الأولى التي حاولت التخلص من هذه الصورة التي كانت عليها حالة التاريخ، تميزت بالتنديد بالوضع، والبحث عن الجديد. فولتير(Voltaire)(1694-1778) لم يخف ازدراءه من ذلك، فحاول تصويب الوضع بمبادرة جديدة ظهرت في أهم مؤلفاته التاريخية وهي **رسالة في العادات** (Essai sur les mœurs) (1756) ، و**قرن لويس الرابع عشر** Le siècle de Louis XIV)، حيث كتب في الأول: << *إنّ تاريخ أوروبا أصبح تقريرا ضخما لعقود الزواج والأنساب والتنافس على الألقاب، التي بقدر ما تنشر الظلام في كل الجهات، تنشر الجفاف، اللذين يخنقان الأحداث الكبرى، فالمعرفة بالقوانين والعادات مواضيع جديرة أكثر بالاهتمام*>>[16]، لهذا، فإنْ لم يشهد القرن الثامن عشر الانطلاقة الحقيقية لهذا النوع من الدراسات، فإنه تضمن بفضل مجهودات العديد من الفلاسفة والمؤرخين ما سيكون عليه في القرن التاسع عشر من حيث غزارة الدراسات

---

[14] Michel de Certeau, L'écriture de l'histoire, p.37.

[15] **D'Alembert**, Mélange de littérature et d'histoire, Berlin, 1753, t. II, p. 3.

[16] **VOLTAIRE**, Essai sur les Mœurs, ch. 74, in fine. نقلا عن G. Gusdorf، l'avènement des sciences humaines dans le siècle des lumières, Paris, Payot, 1973,

التاريخية وبالتالي التأطير الفلسفي للدراسات التاريخية كما تمناه فولتير. لكن رغم التشاؤم الذي كان باديا عند دالامبير وفولتير، فإنّ جورج غوسدورف (George Gusdorf) يلاحظ أنّ الاهتمام بالكتابة التاريخية شهد ازديادا في القرن الثامن عشر مقارنة مع القرن الذي سبقه أدى إلى تغير مهم، ذلك أنّ << *ازدياد الإصدارات التاريخية لزم عنه انخفاض الإصدارات اللاهوتية* >>. وهذا التحول في التقاليد الفكرية في تقديره يعكس ظهور وعي أنثروبولوجي جديد. وهذا يعني أنّ النصف الثاني من القرن الثامن عشر عرف عناوين وإن اختلفت أماكن تأليفها، فإنها تبقى محافظة على أهميتها وقيمتها على صعيد الدراسات الفلسفية التاريخية، << *ففي سنة 1764 نشر إسحاق إيزلان (Isaac Iselin) أول وأكبر ثيوديسيا حول التاريخ Über die Geschichte der Menschheit؛ في سنة 1765، فولتير يتكلم لأول مرة عن فلسفة التاريخ من أجل عنونة كتاب صغير صدر تحت إسم L'abbé Bazin؛ في 1767، آدم فرغوسون ينشر أول أكبر<< تاريخ طبيعي >>، اجتماعي- اقتصادي – سياسي للبشرية تحت عنوان Essay on (history of the civil society)* >>[17]، وإلى هذه القائمة يمكن أن نضيف كتاب إ.غايبونGibbon(1737-1794) *تدهور وسقوط الإمبراطورية الرومانية* (History of the Decline and Fall of The Roman Empire) الذي صدر سنة (1779).

3- من التاريخ إلى فلسفته

إجمالا، إذا كان تزايد الاهتمام بالدراسات التاريخية يعبر عن غايات مختلفة ومتعددة، فإنّ له بالنسبة للفلاسفة غرضه الخاص، فهم يرومون من وراء ذلك إلى ***غاية مرتبطة بتصور أكثر شمولية***، ولا ينحصر اهتمامهم بالأحداث الجزئية التي أثّرت بكيفية ما في مجرى الواقع الاجتماعي والسياسي. فالمشكلة عندهم تمثلت في الانتقال من تصور ديني للإنسان كما تحدد في نظرية التكوين(يقصد بها الكيفية التي تشكل بها الكون وظهور الإنسان على وجه المعمورة) (la genèse)، إلى تصور آخر بقى محافظا على مشكلة التكوين، ولكن هذه المرة بمنظور عقلاني ينطلق من الحدث ذاته. وبهذه الكيفية يصبح التاريخ بالنسبة للفلاسفة وسيلة تسمح بمعرفة حقيقة التغيرات التي مست وتمس الحياة البشرية، وهذا ما يعكس رغبة تحرك السعي إلى البحث عن طابعه الكلي. فالمناخ الفلسفي- العلمي الذي ساد القرن الثامن عشر في ظل الأنوار، حيث ترسخت فيها مفاهيم مستمدة من دراسة الطبيعة، ألهم كثيرا من الفلاسفة ودفعهم إلى البحث عن النظام الذي افترضوه في داخل العالم الإنساني رغم ما يتميز به من خصوصيات << *فإذا استسلمت طبيعة الأشياء لتحليلات العلماء، فيجب على الطبيعة البشرية وهي أكثر تعقيدا أن تخضع كذلك إلى قانون الفكر الصارم* >>[18]. هذه هي بدايات اقتران التاريخ بالفلسفة، أي أنه لا يمكن النظر إلى الواقع المراد تعلقه، دون النظر إلى طبيعة الإنسان، كما كان الحال عند هوبز أو ج.ج.روسو. وفي ها الإطار، كان الفلاسفة يتساءلون من وراء هذا النوع من الدراسات عن نوعية القوانين التي تخضع لها الصيرورة التاريخية، وبالتالي نوعية القوى المتحكمة في الطبيعة البشرية، وما يسير مصير الأمم. الشيء الذي أدى على صعيد الإنتاج الفكري إلى جملة من الأعمال اتصلت بصورة أو بأخرى بما يتكون عليه **فلسفة التاريخ.** لذلك يعتبر القرن الثامن عشر، من جهة ثانية قرن بداية فلسفة التاريخ، وفي ظله

---

[17] **Bertrand Binochet**, Les trois sources des philosophies de l'histoire (1764 -1798), Québec, Presse de l'Université de l'Aval, 2008, p.5.

[18] **Voltaire**, Essai sur les Mœurs, p. 524.

أصبح الفرق بين العلم الطبيعي وفلسفة التاريخ فرقا يتعلق بالموضوع، أما البحث عن المعقولية الواقعية، شكلت غاية مشتركة بينهما.

أما في ألمانيا فتميز الوضع بوجود نشاط يبقى محافظا على خصوصياته، ذلك أنّ القرن الثامن عشر شهد هو الآخر ميلاد حركة فلسفية عاد إليها الفضل في وضع دراسات تاريخية أدت إلى ظهور فلسفات تاريخ مختلفة، كانت بدايتها مع لايبنز(W.G.Leibniz) << *إن رؤية العالم الخاصة بعصر العقلانية الألمانية موجودة في مذهب الله والإنسان، التي طورها لايبنز في التيوديسيا* والمونادولوجيا**، وبفضل مجهودات وولف أصبحت ملكا مشتركا للثقافة الألمانية* >>[19]. ويعد كريستيان وولف (Christian Wolf)***من المؤرخين الذين رفضوا تفسير الأحداث التاريخية بردها إلى الصدفة أو العناية الإلهية، فكل ما يحدث، يحدث وفقا لمبدأ العلة الكافية.

وبتأثير حركة الأنوار، استمر هذا المجهود الذي أصبح غاية عند الفلاسفة، حيث حاولوا بفضله فرض تصور عقلاني حول مجرى الحياة التاريخية رغم تناقضاتها وتناثر أحداثها، ولعّل أبرز هذه المحاولات في العالم الألماني تلك التي شكّلت فيما بعد عصر لايبنز جزءا هاما من نسق هيجل (Hegel)(1770-1831) الفلسفي. تلك المحاولات، على اختلافها وتنوعها بقيت متصلة بالنقاش الفلسفي العام حول التاريخ الذي ميز أوروبا عموما وألمانيا خصوصا في نفس تلك الفترة. فبعد الرواج الذي نالته فلسفة التاريخ الهيجيلية، إذ ألقت بكل ظلالها على الفكر الألماني، بدأ بروز حركة فلسفية ارتبطت بعدة عوامل أهمها محاولة الابتعاد عن الفلسفة النسقية. وبالمجل فإنّ ازدياد وتيرة اكتشافات الحركة العلمية كعامل منافس للفلسفة، حتم ذلك إعادة صياغة الإشكالات الفلسفية خاصة منها ما تعلق بعلاقة الفلسفة بالعلم، الأمر الذي أرغم المدافعين عن الفلسفة بعدم الاستسلام لتفوق النزعة الوضعية، ما أدى إلى إعادة بعث الكانطية ضمن تساؤلات جديدة، واعتبرها أصحابها بديلا حتميا للهيغيلية ونسقيتها، ومحاولة لازمة لإنقاذ الفلسفة رافعين بذلك شعارا << العودة إلى كانط >>.

إلا أن الفكر الألماني بحكم خصوصياته الفكرية، ومن خلال إصرار الجامعات الألمانية على منح الدراسات التاريخية مكانة لم تعدها من قبل، تضمن محاولات أخرى لا تقل أهمية من حيث الأطروحات التي رفعتها، وإنْ بقيت خارجة عن دائرة الاهتمام الكثيف، فلقد استطاعت رغم ذلك، أن تفرض نفسها تدريجيا. ونقصد في هذا الشأن أعمال هيردر، ومساهمات شلاييرماخر فيلسوف الحركة الرومانسية، حيث مست دراساتهم جوانب عدة كانت محل النقاش الفكري العام كالدين، والأدب، واللغة، والتاريخ، فكان لها الفضل في إرساء المنطلقات الأولى لما أصبح يسمى بالحركة الرومانسية الأولى.

---

* من أهم مؤلفات لايبنز الميتافيزيقية وهو يتعلق بالعدالة الإلهية (Théodicée) صدر أولا باللغة الفرنسية سنة 1710 ثم باللاتينية سنة 1712.

** عنوان كتاب ألفه لايبنز سنة 1714 أي سنتين قبل وفاته.- و كان صدوره الأول سنة 1721 في ترجمة ألمانية، بينما النص الفرنسي لم يصدر إلا في سنة 1840 في دار Erdmann.

[19] نقلا Félix GUENTHER, Die Wissenschaft vont Menschen, Gotha, Perthes, 1907, p. 151. عن **G.Gusdorf,** L'avènement des sciences humaines au siècle des lumières, Op.cit., p. 526.

***كريستيان وولف (1679- 1754)المؤرخ الألماني ليس فرايدريك أوغيست وولف (F.A.Wolf) الفيلسوف الألماني(1759– 1824).

انتهى الجزء الأول

الجزء الثاني

هيردر والبحث عن فلسفة تاريخ أخرى:

1- العودة إلى الأصول الأولى:

إضافة إلى ما ذكر من جوانب ميزت ملامح فكر هيردر، فإن المعروف عنه هو أنه كان صاحب مشروع مهم يتمثل في بناء فلسفة تاريخ مختلفة. في هذا المسعى، سيتأثر خاصة بأعمال المفكر الألماني كلادنيوس **(Johan Martin Chladenius) (1710-1759)**- أستاذ علم اللاهوت بجامعة إيرلانجن**(Erlangen)** الذي ارتبطت الهيرمونيطيقا **(l'herméneutique)** باسمه- خاصة كتابه المهم **(Allgemeine Geschichtswissenschaft, Leipzig, 1752** أو **التاريخ الكلي**. فقراءة هيردر له ساعدته على النظر أكثر في العلاقة الموجودة بين الجزئي الذي هو التاريخ والكلي الذي هو الفلسفة التي ستصبح أساسا للتاريخ، لأنه كان يدرك النقص الموجود حولها، وكتابه **من أجل فلسفة أخرى للتاريخ**، لا يعبر سوى عن عدم رضاه بفلسفة التاريخ كما تبلورت خاصة عند فولتير**(Voltaire)**، حيث يقول ستراغينك في هذا الصدد << *إن عنوان كتاب هيردر يتضمن*

محاكاة ساخرة ***(Parodie)*** *لكتاب فولتير*>>[20]، ويكشف هيردر عن أهم انتقاداته للفيلسوف الفرنسي، فالتاريخ لا يخضع لتطور خطي متصل وعقلاني، وهي الانتقادات نفسها التي سيوجهها لأستاذه كانط عندما تنشب الحرب النقدية بينهما، ما يدفع غادامير فيما بعد أن يقول في خصوص هذا الجانب << *واستطاع [هيردر] حينئذ أن يضع رؤية كلية لتاريخ العالم مقابل رؤية غائية لتاريخ عصر التنوير*>>[21]. وتبقى هذه الفكرة المحورية متصلة بالمفكرين الألمان الذين سيشكلون ما يعرف بالمدرسة التاريخية الألمانية*، التي يقول ديلتاي بصددها << *إن الغائية التي تسري في التاريخ الكلي كما هو الحال في عالم الطبيعة لا تفعل، حسبه[يقصد هيردر] سوى، كشكل لمجموع من العلل* >>[22].

المهم الذي أخذه هيردر عن كلادينيوس يمثل المشاكل الحقيقية المرتبطة بعلمية التاريخ، فكلادينيوس يميز بين "التاريخ" و"ما نعرفه" عن الحوادث التاريخية، ومن هنا فإنّ هذا الجزء الذي نتصوره عن التاريخ لا يرقى إلى مستوى الكل الذي هو التاريخ في عموم دلالته، بمعنى أن كلادينيوس يميز بين التاريخ في كليته **(L'histoire dans sa totalité)** حيث تكون إحداثياته الزمنية من الزمان الماضي، والتصور الذي نُشّكله حول الحادثة التاريخية. منطقيا يطرح هذا التصور مشكلا عويصا يتمثل في أنّ هذا الجزء الذي نعرفه لا يرقى إلى معرفة كلية أو التاريخ كما يفهمه كلادينيوس. وبصورة أخرى فالكائنات البشرية غير قادرة على إدراك التاريخ في كليته الذي يمتد عبر الماضي والحاضر والمستقبل، ليس بسبب قصور مناهجنا بل يرتبط بطبيعتنا وطبيعة الموضوع ذاته، ويتضح ذلك من حلال قوله << *التاريخ مختلف عن معرفته، وهو كذلك شيء آخر مختلف عن الرواية ونظريته، فمثلما معرفة الحادثة مختلفة عن الحادثة في ذاتها التي تجد تعبيرها في قضية تاريخية، فكذلك يجب تمييز الحادثة التاريخية عن معرفتها*>>[23]. في ضوء هذا التحديد، التاريخ ينحل إلى ما هو"تاريخ"، وما "نعرفه عن التاريخ""، فنحن إذن أمام واقعيتين الأولى خارجية موضوعية والثانية فكرية ذاتية، وعليه فالواقعة الفكرية لا تتطابق مع الواقعة الخارجية. وبهذه الصورة، فإن كلادينيوس يضعنا أمام صعوبة إبيستيمولوجية أساسية تتمثل في غموض دلالة " الحادثة التاريخية".

بعد هذا يطرح كلادينيوس صعوبة أخرى أو بالضبط تمييزا آخر لا ينفصل عن الأول لكنه هذه المرة يتعلق بالعلاقات الداخلية الموجودة ضمن كل واقعة من الواقعتين حيث يميز بين << التسلسل التاريخي>> و<< تسلسل روايتنا >>، لتصبح هذه الثنائية الجديدة اللازمة

---

[20]**Stranguennec**, La philosophie romantique allemande, op.cit. p 191.

[21]**غادامير، هانز جورج**، الحقيقة والمنهج، مرجع مذكور سابقا، ص. 209.

* سيتم الحديث عن هذه المدرسة لاحقا في نفس هذا الفصل.

[22] **W.Dilthey**, Introduction à l'étude des sciences humaines, Op.cit., p. 133.

[23]**Chladenius** ,Allgemeine geschichtewissenschaften , 1752. D'après Blauke_ fleisher,T1 ,p.249 cité par Wolfgang Pross.

عن السابقة محركة للدراسات التاريخية << *شيء هو التسلسل التاريخي، وشيء آخر هو تسلسل روايتنا، لذلك ميزنا منذ البدء بين التاريخ ومعرفته، وعن هذا التمييز الأخير يتبع تمييز أكبر بين معرفة عامة ومعرفة تاريخية، فالثانية ليست سوى معرفة إنسانية خالصة، وإنجازا للفكر الإنساني، والتاريخ ليس معرفة إنسانية، فهو موجود هنا حتى وإن لم يوجد من يعرفه [...] فالتاريخ يجب أن يتحول إلى معرفة إنسانية* >>[24]، ما يذهب إليه كلادينيوس لا يعني فقط وجود صعوبات منهجية، وإنما نحن أمام تصور جديد للتاريخ لا يخلو من النظرة المثالية، ليس لأنها تجرد التاريخ عن واقعيته بل لأنها تطرحه في كليته ما يجعل المعرفة الخاصة بالحوادث التاريخية دائما معرفة جزئية، وهنا تطرح بإلحاح مشكلة الميتودولوجيا الخاصة بالتاريخ، التي مهما بلغت فعّاليتها فالمسافة المسافة بين التاريخ وما نعرفه عنه شاسعة إلى درجة يتوقف فيها الحديث عن علمية التاريخ، فنحن إذن أمام مفارقة: التاريخ علم ولكن ليس في وسعه أن يمدنا قضايا كلية، وما دامت المعرفة لا ترقى إلى الكلي فإنها ليست علما، تزداد حدة هذه المفارقة كلما زاد الحرص على التعامل مع التاريخ بعقلانية صارمة لا تدع مجالا للانفتاح على آفاق أخرى.

أمام هذا الموروث وجد هيردر نفسه حائرا، فإذا كان التاريخ قد حُدد مفهومه، فصعوبة الارتقاء به إلى مستوى العلم زادت حدتها، والبحث عن المخرج يتمثل في البحث عن الأنموذج العلمي الذي يكون كفيلا بأن يتبع من طرف المؤرخ حتى تنتقل المعرفة التاريخية إلى مصاف المعرفة العلمية. موقف كلادينيوس بهذا الصدد يبشر بإجابة تبرز درجة أخرى من الصعوبة إضافة إلى الصعوبتين المذكورتين- التمييز بين التاريخ وما نعرفه عنه، ثم ثانيا التمييز بين "التسلسل الذي حدث" و " التسلسل الذي نشكله"– فإن كلادينيوس يتساءل: كيف أن حدثا يصبح تاريخا؟ فذلك منذ اللحظة التي نوَّسِعه، وكيف للتاريخ أن يصبح حدثا؟ فذلك منذ اللحظة التي نضغطه **(comprimé)**، نحن أمام إجراءين – **التوسيع** بمعنى جعل الحدث تاريخا، و**الضغط** اختزال التاريخ في حدث، وهذه العملية الأخيرة تتعذر لأن<< المعطيات التاريخية تعاني من الفراغ >> كما يقول وولفغانع[25].

الوضع الإبستيمولوجي الذي يميز مشكلة علمية التاريخ في زمان كلادينيوس هو الذي دفع البحث عن "فلسفة" تخلّصه مما هو فيه، وبالتالي فك المفارقة من طرف هيردر جعله يضع التاريخ ضمن الكلية من خلال النظر إلى " تاريخ البشرية" **(Menschleitsgeschichte)** حيث كتب في الجزء الأول من **أفكار حول فلسفة تاريخ**

---

[24] **Chladenius** ,Allgemeine geschichtewissenschaften , 1752. D'après Blauke_ fleisher,T1 ,p.249 cité par Wolfgang Pross.

[25]**Wolfgang, Pross**, diversité des faits et unité de vue ,op.cit.

البشرية* << *وهكذا فإن فلسفة التاريخ التي تتابع سلسلة التراث، هي حقا التاريخ الحقيقي للبشرية، وبدونها ستصبح الحوادث البشرية مجرد سحاب أو تصير وحوشا مخيفة* >>[26]. التسامي على الجزئي، والوصول بالنظرة إلى التاريخ في كليته هو ما يعطي مشروعية " فلسفة التاريخ" وذلك من خلال إدراك الحوادث الجزئية ضمن سلسلة التراث **(La chaine de la tradition)**، الأمر الذي يقتضي رفض فكرة التطور الخطي للتاريخ، لذلك فهو يرى بأنّ سجّل الكتابة التاريخية ملئ بالأحداث البشرية التي تشّرف ولا تّشرف الإنسان، فما لم ندرجها في دائرة الكل ستصير سحابا أو وحوشا، تاريخ البشرية يتأرجح في سيرورته بين المشرف وغير المشرف فكيف نتحلى بالسذاجة ونقول كما قال فولتير ثم كانط إن تطور التاريخ يتم وفقا لسيرورة منتظمة؟

في كتاب **أفكار حول فلسفة تاريخ البشرية** يقدم نظرة حول الإنسان اتصفت بشمولية أكثر تبقى مشتركة فيما بعد بين أصحاب المدرسة التاريخية الألمانية خاصة منهم درويزن (Droysen)، فالإنسان ليس "كائنا عقليا خالصا"، لأنه أنتج ثقافات متعددة ومتواصلة لا يمكن تقسيمها بشكل تحكمي إلى ثقافات تتميز بالعقل وأخرى تفتقده، منذ البدء العقل ميزة إنسانية، وهذا يعني أن العقل تشّكل في إطار السيرورة التاريخية، واستطاع الإنسان اكتسابه لأن طبيعته تسمح له بذلك، فالطبيعة البشرية واحدة ثابتة، مضمون راهنها ما كان موجودا منذ آلاف السنين << *الطبيعة البشرية تبقى بدون تغير، هي ذاتها، في الألفية العاشرة من تاريخها سيولد الإنسان بنفس الأهواء التي ولد بها في أول أيامه* >>[27]، الطبيعة البشرية هي البعد الآخر للطبيعة، أو هي بعده الأساسي، فالطبيعة تتجذر في الإنسان، فهي لا تفارقه وهو من جانبه يفقد بشريته بدونها ذلك أن << *التفكير لا يؤثر في العالم إلا من خلال الجسم* >>[28]، *تعالي العقل لا معنى له، وحرية الإنسان المطلقة ضرب من الوهم كوننا خاضعين إلى الطبيعة والأشياء* << *الإنسان جزء من الخلق* >>[29]، والحياة لها قوانينها ومطالبها وحاجياتها، وإذا اختلفت من منطقة إلى أخرى فإن هذه الحاجات والمطالب هي التي بصورة أو بأخرى طورت ذكاء لإنسان << *فالذكاء العملي للنوع البشري في كل الجهات يفضل حاجيات الحياة* >>[30]. فلسفة التاريخ عند هيردر هي أنثروبولوجيا الجماعة في المقام الأول، ما يفسر الابتعاد قدر الإمكان عن مقولات نظرية العقل كما حددتها الفلسفة العقلانية[31]. وهنا كذلك يتضح

---

* **Herder**, Idées sur la philosophie de l'histoire humaine, Tomes I , II ,III Introduction et trad. par Edgard Quinet, 1828.

[26] **Herder**, Ideen , IX , 1 ; werk III /1 , p 313 , نقلا عن وولفغونغ بروس

[27] **Herder**, Les idées, tome III, Livre XV, p. 87.

[28] **Herder**, , Les idées, tome III, Livre XV, p. 88.

[29] **Herder**, Ibid. p . 90.

[30] **Herder**, Les Idées, Tome II , Livre VIII , chap. , 3 , p. 87.

[31] **Jean Claude Gens,** La pensée herméneutique de Dilthey, entre néo-kantisme et phénoménologie, Septentrion Presses Universitaires, 2002, p. 34.

الابتعاد عن روسو الذي جعل بداية التاريخ البشري خاضعة لتعاقد فصل بين مرحلة طبيعية ومرحلة سياسية.

يعترف ديلتاي بأن هيردر في مشروعه حاول أن يوفق بين علم الطبيعة والتاريخ، وفي هذا الجانب كان له الفضل إلى جانب مؤرخين آخرين، << *أن يكونوا الأوائل في فتح أبواب العلوم الإنسانية الحديثة* >>[32]، هيردر وضع الإنسان منذ البدء في مهده الذي أنجبه وتربى في كنفه "الطبيعة"، فكيف تصبح العلاقة بين التاريخي والطبيعي؟ إن هذا التساؤل له أهميته على صعيد المنهج، لأنه في حقيقة أمره يطرح مشكلة علاقة التفسير بالفهم كما ستتبلور عند ديلتاي.

2- الطبيعة والتاريخ والحضارة:

إنّ التاريخ هو الآخر ملازم لهذه"الطبيعة"، ولا ينفصل عنها، هو تاريخ الإنسان المتجذر في تكونه الطبيعي، وإن لم يكن الإنسان مخيّرا لوجوده الطبيعي هذا، فإنه هو الذي يختار ويقرر تاريخه في هذه الطبيعة، لذلك يتفاعل في الإنسان جانبان، جانب طبيعي وجانب تاريخي- ثقافي، وبالتالي وفي إطار الصيرورة التاريخية يتلازم الجانبان: إذا كان الإنسان كائنا تاريخيا فلأنه كائن طبيعي، وكل ما اتصل بالتاريخ اتصل بالطبيعة، وكل ما ارتبط بطبيعة الإنسان وجد اكتماله في التاريخ، وهنا يقول هيردر: << *البشرية هي هدف الطبيعة البشرية، وعندما منح الله هذا الهدف للبشر، فإنه قد وضع مصيرهم بين أيديهم* >>[33]، فسواء أتعلق الأمر باللغة أو بالفن أو بأي تعبير آخر من تعبيرات الحياة الإنسانية، فإن انطلاقته من الطبيعة، وبحكم نفس هذه التعبيرات التي تجد أصلها في العادات، فإن الطبيعة البشرية تتطور وبحكم الطبيعة تصبح الثقافة من جهتها قابلة للتطور، ولكن تطور "التاريخ "ليس تطورا خطيا، يتجه نحو غاية نهائية، كما تصوره كانط، لا يولي هيردر أية أهمية للغائية التاريخية، وكلما أتيحت له الفرصة إلا ونقدها، لأن القانون العام الذي تخضع له حياة الأفراد هو المَوْلِد والعيْش وأخيرا الموت، وعلى نفس هذا النمط تكون الحضارات، فالتفاصيل الكثيرة التي قدمها هيردر طيلة كتاب "الأفكار" تبيّن عبثية القول بالارتقاء من السيئ إلى الحسن، ومن الحسن إلى الأحسن، فأحوال العالم البشري غريبة ومأساوية أحيانا لا تتصل بأي منطق عقلي خالص وإلا كيف نفسر تغيرات وتقلبات التاريخ؟ << *هكذا الشمس تختفي ويأتي الليل، وتتمتع البشرية بأشعة غد جديد* >>[34]، "التغير"هو ميزة الحياة وقانون التاريخ << *في كل مكان نجد آثارا، دون أن نستطيع القول أن ما سيبنى أحسن مما حطم* >>[35] وليس

[32] **W.Dilthey**, Introduction à l'étude des sciences humaines, Op.cit., p. 145.

[33] **Herder**, Les Idées, Tome III , Livre XV , chap. 1 , p. 91

[34] **Herder**, Les idées, Tome III, p. 86.

[35] Ibidem.

في وسعنا كذلك أن نعرف << *إن كان الرومان أكثر سعادة من الإغريق، وهل نحن أسعد من أولئك وهؤلاء؟* >>[36].

هذا هو التاريخ البشري الذي يستمد جذوره من الطبيعة يبقى إنجازا إنسانيا بكل محاسنه ومساوئه، وهو بهذا المعنى ليس تاريخا دينيا- مقدسا. تنكشف بعد هذا ثلاث دوائر في فلسفة التاريخ عند هيردر، ثلاث دوائر لا يمكن الفصل فيما بينها أو فكها عن بعضها البعض: 1

- دائرة الله.

2- ودائرة الطبيعة.

3- ودائرة الإنسان، هذا لأخير هو صانع تاريخه بأدوات وشروط لم يصنعها هو.

فلسفة التاريخ عند هيردر هي تقييم متميز لتاريخ أوروبا، مضاد لتقييم "الأنوار" خاصة الفرنسية منها، لأن النظرة إلى الأحقاب المختلفة التي مرت بها أوروبا لا تحمل تلك الأوصاف التي أشاعتها فلسفة الأنوار الفرنسية، فالعبقرية اليونانية ليست عبقرية يونانية خالصة، والقرون الوسطى أنتجت من العادات ما ينفي عنها صيغة الظلامية، أما الدين المسيحي لم يكن منتجا للطغيان، وإن تضمنه، فإنه مرتبط بعوامل أخرى خارج عن روح التدين، ففي نظره الحقبة الرومانية تضمنت من المساوئ ما يجعلها مؤثرة على ما سيلحق :<< *روما كانت سبب اضطراب السلم العالمي لأكثر من ألف سنة* >>[37]، فالمشكل مرتبط بالتهديد الذي يمس التوازنات، بحيث يؤدي إلى الاضطهاد، وفقدان التوازن لا يعني سوى الابتعاد عن مركز الثقل، أي تهديد العقل والعدل كون الأخير هو الوجه الأخلاقي الأول.

يتضح هكذا المنطلق النظري الذي يقيم من خلاله هيردر فلسفة التاريخ، فهو انطلق من فكره الخاص وليس من فلسفة غريبة عن فلسفته. بهذه الكيفية ستكون فلسفة التاريخ الهرديرية منطلقا عاما يسير عليه الرومانسيون فيما بعد، لتأتي فلسفة شلاييرماخر لتعمق النظر أكثر، ورغم وجود الاختلاف بينهم، إلا أنّ القواسم المشتركة تبقى قائمة، من بينها معادة "الأنوار" وعدم الفصل بين الطبيعي والروحي. أما بالنسبة لتقييم ديلتاي لهيردر فلم يمنحه أكثر من كونه أنتج "فلسفة تاريخ"، التي تبقى بمنظوره بعيدة كل البعد عما يصبو إليه، فهي كمثيلاتها << غيوم ميتافيزيقية >>[38]، وبهذا يحافظ على خطه الأساسي.

---

[36] Ibidem.

[37] **Herder** , Les idées ,Livre XV , chap. III ,p 128.

[38] **W.Dilthey**, Introduction à l'étude des sciences humaines, Op.cit., p.147.

فلسفات التاريخ التفسيرية:

المقصود بفلسفات التاريخ التفسيرية هي تصور شامل يبنى في إطار فلسفة تاريخ معينة، يقوم أساسا على النظر إلى التاريخ الكلي للبشرية على أنه يخضع في تطوره المتعدد الأوجه على نفس نمط النموذج الطبيعي، وهذه الفكرة عرفت ميلادها مع فلسفة التاريخ التي وضعها الفيلسوف الفرنسي فولتير (1694-1778)، حيث قدم فكرة حول الإنسان تقوم على تصور مخالف للتصور الذي كانت تتبناه الكنيسة، وعرف بالتصور الطبيعي للإنسان، بمعنى أنّ تاريخ البشرية لا يخضع للعناية الإلهية بل تحكمه نفس القوانين التي تحكم الطبيعة. بناء على هذا أصبح ينظر إلى تاريخ البشرية انطلاقا من مبدأ الحتمية أو السببية، فمتى وصل المجتمع أو البشرية إلى مستوى معين من التطور حتما وبالضرورة سينتقل إلى مرحلة لاحقة تختلف عن السابقة لكنها تتصل بها اتصال العلة بالمعلول. فكانت تصورات فلسفات التاريخ متنوعة ومتعددة لكن في جوهرها تقوم على التشكل الصوري (المنطقي) وهذا ما نلتمسه في أكثر فلسفات التاريخ تأثيرا في الفكر الفلسفي من أهمها فلسفة التاريخ عند كل من هيجا وماركس وأوجيست كونت.

أولا : هيجل علاقة الجدل (المنطق) بالتاريخ.

تعتبر فلسفة التاريخ الهيجلية من أهم الأعمدة الفكرية التي ميزت فكر القرن التاسع عشر، سواء في ألمانيا أو خارجها، وكان لها تأثير بالغ على الفكر الفلسفي اللاحق خاصة فكر ماركس، ومن هذا المنطلق لم يكن هذا الفيلسوف مجرد متتبع أو ملاحظ للتاريخ الفعلي للبشرية، بل ومن خلال موسوعته وفلسفته الروحية لم يفصل بين العقلي والتاريخي، والتاريخي والعقلي، لهذا السبب اعتبرت نظرته للعقل هي ذاتها نظرته لتاريخ. فما يحدث في الواقع ليس سوى تمظهر من تمظهرات الروح، وفي هذا الصدد يقول تيودور وايزمان: ‹‹ ***تؤدي المسلمة الرئيسية في الفلسفة الهيجيلية، فيما يتعلق بعملية التطور الدائمة في العالم وكذلك إيمان هيجل المطلق بقدرات العقل الإنساني، تؤدي لا محالة إلى النتيجة القائلة بأن النضال ضد الزيف القائم وضد الشرور الاجتماعية إنما ينبع من القانون الشامل للتطور الأبدي ومن ثم فهم عقلاني وضروري*** ››[39]، من خلال هذه القضية الأولى يتضح لنا بأنه لا يمكن التطرق إلى فلسفة التاريخ عن هيجل دون محاولة الوقوف عند العلاقة بين العقل والواقع، الروح والمادة.

وإذا كانت فلسفة هيجل في نظر الكثيرين من أصعب الفلسفات الحديثة فهما وتأويلا كما اعترف بذلك برتراند راسل نفسه[40]، فهذا لا يرجع فقط لطابعها التجريدي وغزارة كتاباتها، وإنما كذلك لأنها تشكلت في إطار نسق شامل لا يمكن الفصل بين مكوناته، ومحتوى هذا النسق تمثل في نظرية العلوم *(Le système des sciences)* التي وضعها هيجل، وهذا ما يفسر العدد الكبير من المؤلفات التي عبرت عن ذلك، وهذه الكتابات مازالت محل دراسات يحاول أصحابها اكتشاف المخفي في طياتها. ضف إلى ذلك فإنها تضمنت مفاهيم أساسية فهمها يقربنا من محتوى تلك الفلسفة، ومن هذا الجانب لابد من الإشارة إلى وجود اختلاف بين الشرحين لفلسفة هيجل حول معنى تلك المفاهيم. ومن هنا تكون فلسفة هيجل صعبة الفهم كون كل تصوراتها مترابط بعضها ببعض ولا يمكن عزل تصور جزئي وفهمه بصورة منفردة.

فلنبدأ بما هو أساسي، من الصفات التي ميزت فلسفة هيجل ويقع عليها إجماع قد يؤدي إلى الغموض أحيانا هي " المثالية" (Idéalisme)، وحول هذه النقطة تحديدا، لم يتبع تجريبية د.هيوم التي أدت فلسفته

[39] تيودور وايزمان، الفلسفة الماركسية، حدودها وماهيتها، تر عبد السلام رضوان، سلسلة العلوم الاجتماعية، 1981، ص 23.

[40] انظر: برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية، ج3، ص304.

إلى الريبية العلمية كما وصفها كانط، ولم يتبع كانط ابن جلدته في المثالية النقدية[41]، مما يجعل البعض ينظر إلى فلسفة هيجل على أنها فلسفة لا تمت بأية صلة بالواقع أنها لا تختلف عن الميتافيزيقا اليونانية والوسيطية، وهنا يقول فؤاد زكريا في مقدمة المترجم لكتاب العقل والثورة لصحابه هيربرت ماركيوز الذي يعد من أشهر شراح هيجل في القرن العشرين:‹‹ ***فالمثالية، في نظر المؤلف، محاولة لإضفاء نظام على الواقع التجريبي المضطرب، وهو نظام مستمد، بطبيعة الحال، من العقل أو من الفكر نفسه.وحين يترجم هذا الموقف إلى اللغة السياسية أو الاجتماعية فإنه يعني أم المثالية تسعى إلى تحرير المجتمع من قبضة العوامل العشوائية التي نضل تحكم فيه مادام هذا المجتمع نهبا للعمليات الآلية التي تسيطر عليها قوى غير عقلية: كمتطلبات السوق والسعي إلى الربح أو المنافسة بين المنتجين،.. الخ. وعللا ها النحو يحكم المؤلف على المثالية الألمانية بأسرها بأنها كانت حركة تحررية*** ››[42].

لذلك السؤال الذي يفرض نفسه هو ما علاقة فلسفة هيجل بصورة عامة بفلسفته حول التاريخ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال الذي يهمنا بشكل مباشر، لا يمكن أبدا الإحاطة بها في مساحة ضيقة كهذه، لذلك سنحاول أن التركيز على أهم مكونات فلسفة هيجل ليتسنى فيها بعد الوقوف عند أهم خصائص و مميزات فلسفته حول التاريخ.

لقد تمت الإشارة سابقا أن فلسفة هيجل هي "فلسفة نسق"، والنسق هنا لا يفهم منه مجرد الكل الذي يتضمن الأجزاء بل أنه أكثر من هذا كونه يحيل إلى الوجود وإلى الحقيقة في أن معا، وبهذا يعد من أهم المفاهيم التي بنيت عليها فلسفة هيجل، فما لم نفهم دلالة النسق ستبقى بالنسبة لنا فلسفة هيجل متشكلة من كلمات صماء بلا معنى، والمدخل الرئيس للنسق إنما يتمثل في ما المعنى الذي أخذه "***الديالكتيك***"* أو الجدل عند هيجل الذي يرى فيه وايزمان على أنه أكثر نظريات التطور اكتمالا وشمولا[43]، فسواء في نظر هيجل أو المثاليين الألمان كفشته وشيلينغ، فإن الكون هو ***روح مطلق*** (Esprit absolu)*، تشكل عبر عدة مراحل من التطور في الزمان ومادامت الروح في المستوى الطبيعي فإنها لا تعي ذاتها ويحصل للروح أن تعي ذاتها لمّا تجلت وتحققت في عقل الإنسان[44] وهذا الروح يحتوي على كل شيء ومكتمل.

ويستند هيجل إلى "الديالكتيك" أو "الجدل" من خلال منحه دلالة متميزة تختلف عن الدلالات التي عرف الديالكتيك عند الفلاسفة الآخرين من أفلاطون إلى كانط مرورا خاصة بأرسطو. وكما يشرح ذلك كولي رايت في الكتاب المذكور أعلاه بالطريقة التالية: ‹‹ ***يزعم هيجل أنه عن طريق منهجه المنطقي الذي يسميه الديالكتيك، كيف يربط كل شيء من حيث المبدأ بكل شيء آخر ويساعد في تكوين ذلك الكل الواحد. ولم يسر منهج البرهان عند هيجل في خط مستقيم على نحو ما يفعل المنهج عند ديكارت، إذ أنه لم يبدأ بقضية بسيطة لا يمكن الشك فيها، ويحاول أن يبرهن على كل خطوة متتابعة في حجته العظيمة بطريقة رياضية. وإنما النسق عنده (اي هيجل) هو نسق تضميني، بمعنى أن كل طور من***

---

[41] انظر ديالكتيك هيجل، موسوعة ستانفورد للفلسفة، ترجمة فراس الحمداني، مجلة حكمة، https://hekmah.org/

[42] هيربرت ماركيوز، العقل والثورة، ترجمة فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر- القاهرة، 1970، ص.7

* في الموسوعة الفلسفية المختصرة الجدل أو الديالكتيك يستمد اسمه من الفعل اليوناني الذي يعني" يحاور" وكان يعني في الأصل فن الحوار أو النقاش..

[43] تيودور وايزمان، الفلسفة الماركسية، حدودها وماهيتها، تر عبد السلام رضوان، سلسلة العلوم الاجتماعية، 1981، ص24 .

تعتب الروح من أهم المصطلحات الفلسفية في نسق هيجل، وهو لا يقصد بها ما قصد علماء اللاهوت، فهي تشير إلى الحركة المستمرة، والروح المطلق عنه هي ما يعمل به الكل أي الطبيعة والإنسان والتاريخ، لأنها ماهية الكل كما شرح ذلك يوسف حامد *الشين في كتابه (مبادئ فلسفة هيجل) منشورات الدار التونسية، ص 171.

[44] وليام كلي رايت، تاريخ الفلسفة الحديثة، تر محمود سيد أحمدأ التنوير، ابيربوت، لبنان، 2010، ص 311.

أطوار الحجة يتضمن بقية الحجة كلها. (...) والنسق الذي يتم فيه تفسير كل شيء بطريقة واضحة ومتسقة لابد أن يكون صادقا. لأن الحقيقة هي الكل، إن الحجة في كل مكان عقلية، لأن الواقعي عقلي والعقلي والعقلي واقعي*››[45]. من هنا يصبح المنطق عند هيجل ليس مجرد أداة لاكتشاف الحقيقة، بل الديالكتيك يعبر عن الروح وهو الروح ذاته. فالديالكتيك عند هيجل له هذه الأهمية، فهو كيفية يسير عليها التاريخ والعقل معا، لذلك لابد من اعتبار فيلسوفا كبيرا فهو يستعمل مصطلحات القدماء لكن بمنحها دلالات جديدة نكون مخطئين إذا أبقيناها على المعاني القديمة.

وإذا كان الجدل سيرا أو حركة فهو بطبيعة الحال حركة ضرورية ثلاثية[46]، تنتقل من الفكرة أو القضية إلى نقيضها ثم التأليف، وهذا يعني أن العناصر الثلاثة متفاعلة فيما بينها فالنقيض موجود في القضية والتأليف موجود في القضية ونقيضها معا.فالديالكتيك لا يحتوي على قفزات من محطة إلى أخرى توجد بيمهما فراغ بل كما وصفه الكثيرون[47].

فالديالكتيك بهذا المعنى وبهذه الديناميكية أو الصيرورة يصبح التغيير من حيث يعبر عن الممكن المنطقي مسألة لا مفر منها بحكم تعارضه مع الثبات، لأنه (الجدل) يقوم على مبدأ التناقض، فالنقيض محمول في الفكرة ويفعل فعله ليظهر النقيض وهكذا، لهذا السبب اعتر هيربرت ماركيوز فلسفة هيجل حول العقل والتاريخ فلسفة ثورية بامتياز[48]، وهنا يمكن القول أن هذه الأداة الفلسفية المنطقية المتمثلة في الجدل هي التي سيعتمد عليها هيجل اعتمادا كليا لتأسيس فلسفة تاريخ جديدة لم يستطع فكر القرن التاسع عشر تجاوزها.

مرتكزات فلسفة التاريخ الهيجلية:

مما سبق نقول أن الجدل لا يمكن فصله عن التاريخ البشري، ويمكن القول بأن التاريخ بمنظور هيجل هو مسرح الجدل استنادا إلى مبدأ التناقض، لكن المشكلة التي تواجهنا تتمثل في المعنى الذي يمنحه هيجل للتاريخ، لأنه لا يكمن اعتبار التاريخ بالمعنى المألوف، خاصة منه التاريخ الذي يختص به المؤرخون من حيث أنهم يدرسون الحوادث الجزئية لشعب من الشعوب أو امة من الأمم، فالسؤال ما معنى التاريخ في ظل فلسفة هيجل يظل سؤالا أساسيا ؟

في هذا الجانب يمكن القول أن هيجل ليس هو الفيلسوف الوحيد والأول الذي حاول منح التاريخ معنى آخر غير المعنى المألوف، فالمحاولة الأولى قام بها فولتير حين تحدث عن تاريخ الثقافة وليس تاريخ الملوك والأمراء أو الحروب، تعززت التقاليد الأوروبية بمساهمة مجموعة من المفكرين. ولأجل التوضيح أكثر، فإن الفلاسفة الألمان عموما يميزون بين مصطلحين التاريخ الذي هو (geschischt) والتاريخ الذي هو (historia)، والمصطلح الأول هو الذي كان محل دراسات فلسفية في الفكر الألماني.

استند كولي رايت في هذه المقولة ألى كتاب فينومينولوجيا الروح في طبعته الإنجليزية.

[45] كولي رايت، تاريخ الفلسفة الحديثة، م.م.س، ص311.

[46]فلسفة التاريخ عند الفيلسوف الألماني هيجل، سلمان علاء الشافعي، https://www.alukah.net/culture/

[47] انظر في هذا الصدد كتاب المنهج الجدلي عند هيجل لإمام عبد الفتاح إمام، تنوير، بيروت، 2007 ص.ص (15 – 29)

[48] انظر **العقل والثورة**، هيجل ونشأة النظرية الاجتماعية، ترجمة فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1970. (التركيز على مقدمة الكتب (ملحوظة عن الجدل) ومن الباب الأول التركيز على الفصول 5،6،7. و من الباب الثاني التركيز على المقدمة والفصل 1.

بالنسبة لهيجل يوجد أكثر من دراسة يمكن منحها للتاريخ:

التاريخ الخالص (L'histoire pure) ويسميه البعض التاريخ الأصلي*: وهو التاريخ الذي كان يهم المؤرخ في العصور القديمة باعتباره يدرس الحوادث الإنسانية الجزئية من خلال تجميع ما يترتبط بها من آثار وشهادات بدون غاية ودون ربط سببي، إذ يكتفي المؤرخ بالسرد والتركيز على البطل كما فعل ذلك ثوسيديتس وهيرودوت (Thucydide , Hérodote)* ، ويعتبر هيجل هذا التاريخ أنه بدون معنى.

التاريخ الكلي *(L'histoire universelle)*: وهو التاريخ الذي يحاول فيه المؤرخ الإحاطة بكل الحوادث ظنا منه أنه سيصل إلى تفسير كلي بالاعتماد على الجزئيات، فهذا الصنف من التاريخ ليس فقط صعب المنال كونه يتضمن صعوبات جمة قد لا يتفطن لها المؤرخ، بل أنه لا ينطلق من العقل أو الروح باعتباره معبرا عن نفسه في الواقع، وعليه يظن أصحابه أن التاريخ يعيد نفسه وبالتالي يمكن أن يكون التاريخ وسيلة تعرفنا بأخطاء الماضين ونتجنبها مستقبلا، إلا أن التاريخ في نظر هيجل لا يقدم لنا أجوبة حول المستقبل والحاضر.

التاريخ العقلي *(l'histoire rationnelle)* ***:*** وهو التاريخ الحقيقي ويقترن هذا التاريخ في نظر هيجل بالفلسفة، لأن الفلسفة عنده ليست سوى علم العقل والعقل لا يوجد خارج التاريخ. فتاريخ العالم إذا كان تاريخا واقعيا وأحداثه مجسدة في أفعال البشر، فهذا لا يعني انفصاله عن العقل أو الروح. بهذا المعنى بالرجوع إلى ما ذكر سابقا حول علاقة المنطق بالتاريخ، فإن العقل يصبح هو المسيطر والمتحكم في التاريخ ومجمل صيرورته، وإذا كان هذا صحيحا فإن الأحداث التاريخي ليست سوى لحظات من مخطط عقلاني إجمالي. وعليه فدور المؤرخ ينطلق من هذه الكلية والتفاعل التواصل بين مختلف المكونات التي أنتها الإنسان وتشكل في لغة هيجل الروح الموضوعي (l'esprit objectif)، ليتحول العلم التاريخ إلى متابعة أهم اللحظات التي تعمل على إحداث التغيرات الكبرى. والعلم التاريخي الذي لا يكون شموليا بحيث يعتبر المسائل الثقافية والسياسية والدينية والعلمية وكل مكونات الثقافة ليس تاريخا. واستنادا إلى هذا كله فإن تظهر العلاقة الهامة عند هيجل بين السياسة وفلسفة التاريخ، لأن التاريخ ليس سوى تحقق الحرية من خلال تأسيس دولة القانون التي تستند إلى كل تراثها الفني والديني والثقافي على حسب ما جاء في الكتاب الهام لهيجل " التعقل في التاريخ" (*La raison dans l'histoire*): ‹‹ في تاريخ العالم تتحقق الحرية والروح، على شكل إقامة دولة قانون، من خلال المنجزات الثقافية والفنية والدين. العقل موجود في التاريخ وعلى الفلاسفة استكشافه ››[49] .

ثانيا : فلسفة التاريخ الماركسية.

ماركس يقلب الجدل الهيجلي رأسا على عقب ويعطيه طابعا ماديا واقعيا وذلك استنادا إلى نقده لفلسفة هيجل بصورة خاصة المثالية الألمانية بصورة عامة، فكان التحليل الماركسي للتاريخ باعتباره هيجليا في شبابه مؤسسا في نظره على الاقتصاد السياسي، فتصبح فلسفة التاريخ عنده ليس أداة فكرية لفهم الواقع بل محاولة لتغييره في الاتجاه الذي تفرضه المادية التاريخية، لذلك يعتبر قوانين الجدل محققة للتغير على المستوى الواقعي ما يجعله يصف جداه بالثوري، أي أنه لا يهتم بفهم العالم مثلما فعل الفلاسفة

* انظر ، هيجل، العقل في التاريخ، تر إمام عبد الفتاح إمام، تنوير، 2007، ص.ص 34/33/32.
* مؤرخان يونانيان اشتهر كل منهما بالكتابة الكتابة التاريخية.
[49] هيجل العقل في التاريخ، منشورات لوسوي، باريس، 2011.

حتى زمانه، بل يسعى إلى تغيير. وبالتالي مع ماركس أصبح لفلسفة التاريخ مستوى من البنية الفوقية التي يعتمد عليها العمال لتحديد مصيرهم.

المحاضرة الثانية

الواقع والفكر في ظل الجدل الماركسي:

مصطلحاً، الجدل والصيرورة يتكرران في مؤلفات ماركس بشكل ملفت للإنتباه، وخصوصاً في منهجيتها: الجدل المادي. لكن ما الرابط بينهما؟ هل يعنيان الشيء ذاته؟ أو أنهما مختلفان ولا علاقة تربط بينهما ؟

يشار إلى الجدل حين الإشارة إلى المنهجية، أي الجدل المادي، لكنه يشير إلى الصيرورة حين الإشارة إلى الواقع، بالتالي ما العلاقة الممكنة بين الجدل والصيرورة؟

لا شك في أن مصطلح الجدل يشير إلى الفكر، أي إلى قوانين فكرية، أو تجريدات فلسفية هي قوانين، جرى استخلاصها من تاريخ تطور الفلسفة، وهذا ما قام به هيغل. حيث توصّل وهو يبحث في تطور الفلسفة إلى "مبادئ تطور الفكر"، فاعتبر أنها هي قوانين فعل العقل، العقل الذي يفرض تطور الواقع وفق الفكرة التي هي نتاجه. ولخّصها في ثلاثة قوانين جوهرية هي: **القضية – النفي أو النقيض – ونفي النفي أو التركيب ((thèse – anti-thèse- synthèse**، ***التناقض، التراكم الكمي والتغيّر النوعي***.

هذا هو الجدل الهيغلي، الذي يرى أن تطور الفكر يسير في شكل جدلي. ولأن الفكرة هي صانعة الواقع فإن الواقع ذاته يتطور في شكل جدلي. وهذا يعني أن مصطلح الجدل هو تجريد فلسفي جرى التوصّل إليه من خلال دراسة تاريخ الفلسفة بالتحديد. وبالتالي بات يرتبط بما هو فكري، وأصبح مسمى منهج تفكير صاغه هيغل وضمنه ماركس منهجيته.

إلا أن ماركس كسر التحديد المثالي لجدل هيغل عبر قلب الأمر المتعلق بعلاقة الفكر بالواقع،ذلك أن ماركس اعتبر جدل هيجل جدل يمشي على رأسه ويحتاج إلى قلبه حتى يستقيم، وهذا يعني عنده: أن الواقع هو الذي يتطور في شكل جدلي، وأن مسار الفكر هو انعكاس لذلك، وبالتالي فإن جدلية تطور الفكر هي نتاج جدلية تطور الواقع ذاته. ولقد ظل المصطلح يخصّ الفكر، أي المنهجية التي باتت مادية: أي المادية الجدلية كما هي في أدبيات ماركس ومن تبعه. نحن هنا في مستوى الفكر، مستوى الفلسفة، حيث قاد التجريد الذي هو اختصاص الفلسفة إلى تبلور قوانين تتعلق بآليات الحركة في الفكر والمجتمع. بالتالي فإن الجدل هو تجريد لآليات ذهنية ترسم طبيعة الحركة.

هذا يعني أن التوصّل إلى الجدل على المستوى الفلسفي ومن خلال تطور الفلسفة أوصل إلى نتيجة حاسمة تتمثل في "اكتشاف" منهجية جديدة نتيجة تلخيص آليات تطور الفلسفة، هذا التطور الذي كان انعكاساً لتطور الواقع. بالتالي بات لدينا منهجية هي "القوانين العامة للحركة".

الجدل هو القوانين العامة للحركة في الطبيعة والمجتمع، هو التجريد العام لهذه الحركة على شكل قوانين. وهي قوانين تشكِّل آليات لنشاط الذهن وهو يبحث في الواقع. وهي تساعد على تناول مستويات الواقع، والعلاقة فيما بينها، وتناقضاتها التي تقود إلى التقدم. إذن الجدل المادي هو نشاط ذهني يتجاوز المنطق الصوري الذي هو نشاط ذهني متوارث، ويتغلغل في مختلف فروع البحث "الأكاديمي"، والفكري

الذي لا يعتمد الماركسية، وحتى البحث المسمى ماركسي دون أن يعتمد الجدل المادي كمنهجية. ومن ثم فإن ***الجدل هو المنطق الجديد الذي يتجاوز هذا المنطق***، ويحقق نقلة نوعية في تطور منطق التفكير، أوصل إلى العلمية. ***فالجدل المادي هو منهج علمي***، بالضبط لأنه ينطلق من البحث في الواقع وفق القوانين التي يسير فيها. إنه لا يُلقي على الواقع ما ليس فيه، بل ينطلق من بنيته بالذات.

أما ***الصيرورة*** فهي "الترميز" للواقع في حركيته، هي الحياة الواقعية، كلية المجتمع في تناقضاته وعلاقاته وحركيته. هنا نحن إزاء الوجود، الواقع، حيث يتعلق الأمر بالاقتصاد والطبقات والأيديولوجية والدولة، في مسار كل منها، وتشابك مسارها، وكل التناقضات التي تحكم كل منها وفيما بينها. الصيرورة هنا تشير إلى الواقع، إلى الوجود، إلى ما هو مادي. هي حركة الواقع التي هي ليست "مستقيمة" أو سلسة، بل هي تناقضية. وهي تسير وفق مبدأ القضية/ النفي/ ونفي النفي. وتتخذ شكلاً تراكمياً لتحقيق ذلك. هنا نحن نتحدث عن الاقتصاد والطبقات والدولة والأيديولوجية، عما هو في الواقع، وكيف يتحرَّك.

بالتالي نحن إزاء قوانين الجدل متمظهرة في الواقع في كل تلك المستويات وفيما بينها. هذا هو المعنى لكون قوانين الجدل هي مؤشّر فهم الواقع. فهذه الصيرورة هي جدلية، وتنحكم لقوانين الجدل، أي: التناقض، التراكم الكمي والتغيّر النوعي، ونفي النفي. ولقد كان انعكاس تطور الواقع بما هو تطور تناقضي وتراكمي ويفضي إلى نفي النفي، على المستوى الفلسفي هو الذي جعل مسار تطور الفلسفة تناقضياً وتراكمياً ويفضي إلى نفي النفي. هذا ما اكتشفه هيغل في مسار تطور الفلسفة، وصاغه في منهج جديد هو الجدل. والآن نعود عبر هذا الاكتشاف، بعد أن أوقفه ماركس على قدميه، لفهم صيرورة الواقع ذاته، كما حدث في الماضي، وكما هو قائم، وإلى ما يمكن أن يفضي إليه.

لهذا يمكن ***تعريف الجدل المادي بأنه هو الصيرورة الواقعية مصاغة في الذهن على شكل تجريدي***، هو الصيرورة الواقعية مجرَّدة على شكل قوانين أكثر عمومية تمثّل آليات مسار حركة الواقع. وهنا يكمن الربط الحتمي بين القوانين المجرَّدة والواقع، حيث أن هذه القوانين هي التجريد الأعلى لصيرورة الواقع، وحيث يساعد الشكل التجريدي هذا، بعد اكتشافه، على فهم الواقع، فهم صيرورة الواقع في تاريخيته. فهم التاريخ وصولاً إلى الحاضر، وفهم الصيرورة الممكنة في المستقبل.

ثالثا: أ. كونت والانتقال من فلسفة العلوم إلى فلسفة التاريخ.

لم يخرج أ.كونت عن الإطار الفكري الأوروبي، ولم يخرج كذلك عن التصور الطبيعي كونه بقي منسجما مع فلسفته الوضعية التي على أساسها بنى فلسفة تاريخ وضعية أو كما سماها بالسياسة الوضعية، معنى هذا أنه وإن غلب عليه الطابع الإبستمولوجي، فإنه أراد أن يجعل من فلسفة التاريخ نظرية لحل الأزمة التي كانت فرنسا تعاني منها، لأنه لم يميز كما فعل هيجل بين تطور العقل وتطور المجتمع، فكان قانون الأحوال الثلاث الركيزة التي بنيت عليها فلسفة التاريخ عنده.

المدرسة التاريخية الألمانية وبداية التحولات المنهجية في الدراسات التاريخية:

المنحى العام الذي أخذه التحليل إلى حد هذا المقام، هو إبراز خصوصيات الفكر الألماني في لحظته الرومانسية، منذ هيردر إلى وشلاييرماخر، إن النظر في مضامين فكر أهم أعضاء المدرسة التاريخية الألمانية، يساعدنا على معرفة أهم التجديدات التي أدخلت

على الدراسات التاريخية عموما وفلسفة التاريخ خصوصا، وفي هذا الصدد فإن المنعرج الإبستيمولوجي الذي وضعه ديلتاي في كونه فتح آفاقا جديدة على العلم التاريخي كما يسميه، ولأنه كما قال روبير داندوا (Robert Dandois) في تقديمه لكتاب غرويتنزن (Bernard Groethuysen) " **فلسفة وتاريخ**"* << *لا نستطيع أن نفهم ديلتاي إن لم ندرجه في سياق بحوث المدرسة التاريخية التي ينتمي إليها هومبولت وسافينيي، تراندلانبورغ ونيهبور، بوخ، ونومسون. ومن هذا الاهتمام بأعمال المدرسة التاريخية الألمانية تولد عند ديلتاي، الوعي بتاريخية الإنسان* >>[50]، ونفس هذه الفكرة نجدها عند جان كلود جان ولكن من جهة التأويل، << *إنّ التوسيع الأساسي لمجال الهرمنيوطيقا عند ديلتاي من دائرة اللغوي إلى دائرة مجموع المنتوجات التاريخية كتعبير عن الفكر الإنساني قد شرع فيها من طرف بوك** ودرويزن* >>[51].

إن العنوان العريض الذي يمكن أن نضعه على مدخل دفتر المدرسة التاريخية الألمانية هو التاريخانية (L'historisme)* ، ومهما كان الحقل الدلالي الذي يمتد عبر أطرافه هذا المصطلح، فإن << *المدافعين عن الخصوصية التاريخانية، يردونها إلى هيردر، خاصة ماينيكه (Meinecke)، على أساس أنه عارض" الأنوار" بكتابه " **من أجل فلسفة أخرى للتاريخ** "، ففي الحين الذي تبحث فيه فلسفة التاريخ عند الأنوار عن القوانين التاريخية الكلية، فإن التاريخانية تقول بتعذر رد الجزئي إلى الكلي، ولا وجود لقانون يربط بينهما. فكل حالة خاصة هي في نفس الوقت ذاتها حالة كلية* >>[52]، كما بين فرانسيزاك دراوس في دراسة له حول التاريخانية أنّ << *ماينيكه ذاته يعتبر ظهور التاريخانية كأكبر صورة فكرية في الغرب*>>[53]، ومن جهته فإنّ غادامير أكد على أنّ ميلاد المدرسة التاريخية ارتبط بتغيير النظرة إلى التاريخ: << *فشهادة ميلادها [المدرسة التاريخية]، إن جاز التعبير، هو رفضها للتركيب القبلي لتاريخ العالم. ودعواها الجديدة هي أنّ البحث التاريخي فقط، وليس الفلسفة*

---

*Bernard Groethuysen, Philosophie et histoire, édité par Bernard Dandois, Paris, Albin Michel, 1995.

[50] برنار داندوا، مقدمة كتاب., Philosophie et histoire ,Bernard Groethuysen ، p 23

بوك (1785-1867): تلميذ فولف (Wolf) و شلاييرماخر، وأستاذ ديلتاي، من فقهاء اللغة الكبار، ألف أهم أعماله الذي نشر تلميذه E.Bratuscheck جزءه الأول بعنوان **موسوعة العلوم الفيلولوجية ومنهجها. فتحي إنقزو، إقامة العالم التاريخي، تعليقات المترجم،ص.191.

[51] **Jean Claude Gens**, Le chemin de Dilthey l'héritage de Boeck et de Droysen à la fondation des sciences de l'esprit sur une logique herméneutique de la vie, .

قاموس المصطلحات "Historismus" بالألمانية Historismus " بالفرنسية و "Historisme هذا المصطلح الهام " الفلسفية لـ ميشال بلاي ، جاء حوله ما يلي: موقف نظري يهدف إما إلى وضع المضامين المعرفية في سياقها التاريخي . وفي (historicisme) تسمى كذلك (historisme)الخالص، وإما إخضاع التصور إلى التاريخ. ففي الحالة الأولى * وهي مجرد نسبية ثقافية.(historisme)الحالة الثانية التاريخانية

[52] **Michel Blay**, Dictionnaire des concepts philosophiques, Op.cit., p 371.

[53] **Francizek Drauss**, <<La structure, le sens et la méthode de l'histoire selon l'historisme >>, Source: Revue européenne des sciences sociales, T. 23, No. 71, http://www.jstor.org/stable/40369636 Accessed: 01-05-2015 19:23 UTC, p.p.119-120.

التأملية، ما يمكن أن يقود إلى نظرة كلية للتاريخ >>[54]. وإذا كان من جانبه جون غراندان يقر ويعترف كذلك بالنسبية فإنه يعتبرها بمثابة << *الأطروحة التي تؤكد على أن كل ظاهرة جزئية يجب أن تفهم انطلاقا من سياق عصرها* >>[55]، فضرورة الربط بين الجزئي والكلي هو أهم ما يراه دعاة التاريخانية ولذلك لا يمكن إنكار العلاقة بين التاريخانية كأطروحة وفلسفة هيردر، لأنه من خلال ما تبين سابقا، فإن هذا الأخير لم يجد في فلسفة التاريخ كما جاءت بها الأنوار سوى محاولة تفتقد النظرة الموضوعية حتى تمنح التاريخ صبغة علمية، فهو يرفض " كلية القوانين التاريخية" كما يرفض في نفس الوقت " التطور المنتظم للتاريخ"، ولهذا فهو فعلا أول من وضع التاريخانية على المستوى النظري. وعليه فإن التطور اللاحق على مستوى الدراسات التاريخية يعود فيه الفضل إلى أعضاء المدرسة التاريخية، وإنْ كان نصيب هيردر لا يستهان به، وذلك أنّ غادامير يعترف بمدى تأثيره << *كان نقد هيردر لمخطط عصر التنوير عن فلسفة التاريخ هو الذي جعل هذا التطور ممكنا* >>[56].

إنّ أهم ما ميز القرن التاسع عشر هو البحث عن كل ما بإمكانه منح العلوم درجة أكثر من الموضوعية والدقة وإصرار إبعادها كلية عن التأملات الميتافيزيقية، وفي مجال علم التاريخ وجدت هذه النزعة عند المفكرين التاريخانيين، الذين حاولوا من جهتهم تحديد المناهج التي تمتلك من خلالها الدراسات التاريخية علميتها وتصبح لا تختلف عن العلوم الأخرى، وهنا يقول غراندان: << *المشكل المحوري عند التاريخانية الذي حركه تقدم العلوم الدقيقة هو أولا وقبل كل شيء الموضوعية العلمية: كيف يمكن لعلم قليل الصرامة مثل التاريخ أن يصبح ممكنا؟* >>[57]، لا يمكن إبعاد الفلسفة النقدية من الفضاء الفكري للقرن التاسع عشر عامة والنصف الثاني منه خصوصا.

وبهذا يمكن القول بأن أصحاب المدرسة التاريخية حركهم في مشاريعهم وأعمالهم العلمية حرص إنجاز تأسيس نقدي لعلم التاريخ << *إن التفكير المنهجي للقرن التاسع عشر، وبتوجيه من هذا التجمع الجديد للتاريخانية، لم يكن له إذا اختيارا آخر غير تصور مكافئ لـ" نقد العقل التاريخي " للعالم التاريخي والعلوم الإنسانية بصورة أكثر عمومية* >>[58]، فكانت أعمال ولهالم فون هومبولت (Wilhelm Von Humboldt) (1767 – 1835) وليو فون رانكه (Léo Von Ranke) (1795– 1886) وأوجيست بوخ (Böckh August) (1785- 1867) ويوهان غوستاف درويزن(Gustave Droysen) (1808-1888)، وهم من أشهر ممثلي << المدرسة التاريخية الألمانية >>، التي ساهمت من خلال أعمال أصحابها في توجيه الدراسات

---

[54] **غادامير، هانز جورج**، الحقيقة والمنهج، مصدر مذكور سابقا، ص. 289.

[55] **Jean Grondin**, l'universalité de l'herméneutique, PUF, 1993, p 102.

[56] **غادامير، هانز جورج**، الحقيقة و المنهج، م.م.س، ص. 289.

[57] **Jean Grondin**, l'universalité de l'herméneutique, Op.cit., p 102.

[58] Ibid., Op.cit., p 103.

التاريخية توجيها آخر يختلف ويتميز عما كانت عليه سابقا، إذ حولتها من الدراسة الفيلولوجية إلى التخصص الذي يصبو إلى قدر عال من العلمية والاستقلالية، وفي هذا الإطار يقول ديلتاي في مقدمة 1883: << *كان يجب انتظار المدرسة التاريخية- هذا الحد مأخوذ في معناه الأكثر عمومية*- لكي يتحقق الوعي والعلم التاريخيين* >>[59]، وما قامت به المدرسة لا يستهان به في نظر ديلتاي والخدمات التي قدمتها إلى العلوم الجزئية عموما جعلتها فعلا تنقل المعرفة التاريخية من مستوى التبعية للميتافيزيقا إلى مستوى العلم المستقل، وترتب عن ذلك تغير النظرة إلى علم التاريخ وإلى الأحداث التاريخية حيث قال يوصف إسهاماتها << *إنها تنظر إلى الأحداث وفقا لطريقة كلها أمبيريقية، وامتصت بكل شوق جزئيات الأحداث التاريخية، عندما تتطرق إلى التاريخ كان بداخلها روح كلي يريد تحديد قيمة الحدث المعزول بإعادة وضعه في مجموع التطور التاريخي، وحرك نظريتها حول المجتمع حس تاريخي يبحث دائما في تاريخ الماضي تفسيرا وقانون الحاضر، وبالنسبة لها أخيرا، فإن الحياة الروحية أينما كانت ومتى وجدت، ليست سوى حدثا تاريخيا* >>[60]. هذا ما رآه ديلتاي في المدرسة التاريخية، فهو بذلك لا يحصر وصفه على المفكرين الذين اختصوا بالتاريخ، يقصد بذلك أصحاب التخصصات الأخرى كالحقوق والاقتصاد، ما يعني أن المهم الذي حققته المدرسة هو ترسيخ فكرة إنسانية التاريخ بعيدا عن المقولات الميتافيزيقية، وإمكانية تفسير حوادثه من خلال اكتشاف نظام الحوادث العلي، وفي هذا الجانب لا يمكن إنكار التأثير الكانطي على أعضاء المدرسة وعلى الإشكالية التي حاولوا حلها بالأساليب المتاحة لهم آنذاك. وما يمكن ذكره حول هذه المدرسة خاصة أعضائها البارزين، هو أنهم يتفقون مع كل من هيردر وديلتاي في جوانب مهمة، لكن هذا لا يعني بحال من الأحوال السعي إلى المطابقة بينهم، فمع هيردر يتفقون في رفض الهيجيلية من حيث هي فلسفة وضعت التاريخ في أفق ميتافيزيقي أثبت فيه الإنسان باعتباره صانع التاريخ مقولة مجردة، أما مع ديلتاي فإن المنبع المشترك بينهما يتمثل في فكر شلاييرماخر، وبالتالي أخذهم بالتأويل كإجرائية بحث في العلم التاريخي، و ذلك ما سيتضح مع بعض أقطابها.

1- ليو فون بوخ (1817-1867) (Léo Von Böckh):

يعد من الممثلين الأساسيين للمدرسة، وإذا كان مؤلفه الرئيسي بلا شك هو **موسوعة ومنهجية العلوم الفيلولوجية***، فأعماله الأخرى لا تقل أهمية لأنها تتصل كلها بالفيلولوجيا، وإذا شكلت من جهة أخرى الهيرمنيوطيقا أهم ما بحثه بوخ، فإنه أخذها عن أستاذه

*إنّ المدرسة التاريخية في نظر ديلتاي لا تنحصر في علماء التاريخ بل تصل إلى علم الاقتصاد والحقوق.

[59] **W.Dilthey**, introduction à l'étude des sciences humaines, Op.cit, p. 1.

[60] **W.Dilthey**, introduction à l'étude des sciences humaines, p 2.

* Encyclopädie und Methodenleher der philologischen Wissenschaften, hrsg, von E. Bratuscheck, 1877.

شلاييرماخر شفهيا باعترافه الشخصي << *استثمار أفكار شلاييرماخر في عرضي لم يكن اعتمادا على كتابات، بل من خلال مداخلات سابقة بحيث أصبحت في حالة لا أستطيع التمييز بين ما هو خاص بي وما هو غريب* >>[61]، وأهم ما عرف به بوك يتمثل في المشروع الذي كان في ظل معطيات عصره محفزا لكل نشاطه العلمي، أي أن يجعل الفيلولوجيا علما بالتالي يخرجها من وضعية التبعية التي كانت عليها سابقا، ولتحقيق هذا الغرض ربطها مباشرة بالتاريخ أو جعل التطابق قائما بينهما حيث يقول << *إن الفيلولوجيا كما أراها في الغالب يجب أن تكون بناء تاريخيا لكل الحياة، وبالتالي لمجموع ميادين الثقافة واتجاهات شعب في توجهاته العملية والفكرية والروحية* >>[62]، وهذا يعني أنه إذا كانت الفيلولوجيا مرتبطة بالنص، فإن بوخ جعلها تتجاوزه إلى درجة التطابق مع التاريخ، لأنه << *عندما تهدف إلى معرفة مجموع الحياة التاريخية يتحقق تطابق الفيلولوجيا مع التاريخ مادام هدفها هو البناء التاريخي للمعروف في كليته* >>[63]. أما على صعيد الموضوع الذي تتكلف الفيلولوجيا بدراسته فإنه " ما هو معروف " (Le connu) ، وهنا يقول جان كلود جان << *إن الفيلولوجيا تهدف حسب تعبير سابق لهيجل وشلاييرماخر، إلى معرفة "المعروف" أي إعادة التعرف عليه (reconnaitre)* >>[64]، بمعنى تعيد معرفة ذلك الكل من الإنجازات والمنتجات التي أتت على يد الإنسان عبر مسيرته التاريخية، وعلى صعيد المنهج الذي ارتآه بوك فإنه بقي في هذا الجانب شديد التأثر بأستاذه شلاييرماخر الذي جعل من الهيرمنيوطيقا وسيلة للتعامل مع" المعروف"، فبوك يضعها في إطار ينسجم مع هدفه المتمثل في جعل الفيلولوجيا علما يتناول بالدراسة الكل، وفي نظر جان غراندا فإن << *وصفة بوك لمعرفة جديدة لما هو معروف نافذة من حيث أنها دعوة إلى بحث متقدم دائما، إلى نفاذ أكثر عمقا للكلام، وهذه خطوة تمثل روح كل هيرمينيوطيقا* >>[65]، وحسب ما جاء في دروس *موسوعة ومنهج العلوم الفيلولوجية* التي قدمها ابتداء من سنة 1809، فإنها تتضمن جزأين أساسيين، يمثل الأول الجانب الشكلي والثاني الجانب المادي، فالأول هو << *منهج البحث الفيلولوجي* >>[66]، أما الثاني فإنه يشمل المواد التي يبحثها هذا العلم[67]، يتضح تأثير شلاييرماخر في بوخ بصورة أكثر، ذلك أن الأخير أراد أن يصل إلى *الفهم الأفضل* للكاتب، ولهذا يرى جون

---

[61] القول لبوخ في كتابه Encyclopädie und Methodenleher der philologischen Wissenschaften نقلا عن، **Jean Grondin**, l'universalité de l'herméneutique, Op.cit., p. 104.

[62] **Böckh**, Gesammelte Klein Schriften, vol.2. p. 10. نقلا عن **Marc de Launay** ‹‹August Böckh et la ‹‹Philologie universelle›› ››, Revue germanique international.

[63] **Böckh**, Gesammelte Klein Schriften, vol.2. p. 10. نقلا عن **Marc de Launay** ‹‹August Böckh et la ‹‹Philologie universelle›› ››, Revue germanique international.

[64] **Jean Claude Gens**, Le naissance du paradigme de l'herméneutique, Op.cit., p. 299.

[65] **Jean Grondin**, L'universalité de l'herméneutique, Op.cit., p 105.

[66] Encyclopädie, 48, نقلا عن Jean Claude Gens, la naissance du paradigme de l'herméneutique, Op.cit., p. 299.

[67] Ibidem.

غراندا أن هرمنيوطيقا بوخ << *تبدو قليلة الأصالة* >>[68]، إلا أنه، ورغم ذلك يمثل وجها آخر من "التاريخانية" المتصلة بالفيلولوجيا، ومن هذا الجانب يبقى الارتباط بينه وبين درويزن قائما حتى وإن كان لديلتاي موقفا مغايرا حول الاثنين.

2- منهج التأويل التاريخي عند درويزن (1808– 1884) (Johann Gustave Droysen):

درويزن صاحب ميزتين أساسيتين على الأقل، الأولى أنه مؤرخ وذلك ثابت من خلال عمله المهم "تاريخ ألكسندر الأكبر* الذي ألفه سنة 1833، وأما الثانية، فهي أنه كرس جهوده للتنظير لميدان ازدادت أهميته في القرن التاسع عشر وهو "منهجية الدراسات التاريخية". ومنحاه الفلسفي كان من المتأثرين بكانط، ورغم تتبعه لدروس هيجل إلا أنه استدار عنه، ويبقى ولهلم فون هومبولدت (Humboldt)** في نظره العالم الأكثر تمثيلا لمنهجية الدراسات التاريخية حيث قال فيه: << *إنه لفي أعمال غيوم هومبولدت وجدت الأفكار التي تسمح في نظري أن نتبع هنا طريقا قابلا للسير، لقد بدا لي كأنه بيكون العلوم التاريخية* >>[69]، ولكن رغم هذا الإعجاب ورغم هذه الإشادة يبقى درويزن تلميذ بوخ (Böckh)، وبحكم سعة ثقافته وذكائه الحاد، أصبحت الفيلولوجيا والفلسفة والتاريخ متقاطعة في أعماله[70]، التي شملت على مختلف هذه الجوانب، ويعتبر " تاريخ الهلينستية"[71] من أهم ما كتب درويزن حول التاريخ القديم خاصة فترة ألكسندر الأكبر* وما بعدها، ونظرا لأهمية هذا العمل الذي عرف ترجمة إلى الفرنسية سنتي 1883– 1884، أشرف عليها أجيست أ.بوشي لوكلارك (Auguste Bouché – Leclercq,1883-1885)، أما المؤلف الذي جاء تحت عنوان (Grundriß der Historik)[72]، هو عبارة عن دروس قدمها في جامعتي إيينا (Iéna) ثم برلين (Berlin) في الفترة الواقعة ما بين 1857 و1882، وألف فيما بعد **"مختصر نظرية التاريخ"** الذي عرف عدة إصدارات ما بين 1858 و1882، بينما ترجمتها الفرنسية لم تصدر إلا في سنة 2002 قام بها ألكسندر أسكوديي (Alexandre Escudier)*، ورغم

---

[68] **Jean Grondin**, L'universalité de l'herméneutique, Op.cit., p 105

*وهو الجزء الأول من مجموعة كاملة أخذت ثلاثة أجزاء، و جاءت تخت عنوان " تاريخ الهيلينستية" .

**غيوم هومبولت (Guillaume Humboldt) (1767- 1835) ، مؤرخ ألماني.

[69]**Droysen**, Précis de théorie de l'histoire, traduction, présentation et notes par Alexandre Escudier, Paris, les éditions du cerf, 2002, p. 35/36.

[70]**Droysen**, Précis de théorie de l'histoire, Paris, Les édition du cerf, 2002, p. 17. - **آليكساندر أسكوديي**، تقديم كتاب

[71] **Droysen**, Geschichte des Hellenismus, Berlin, 1877-1878.

*ألكسندر الأكبر أو ألكساندروس ميجاس (356 ق.م. – 323 ق.م)، من مشاهير العسكريين في التاريخ، ابن الملك المقدوني فيليب الثاني، وتتلمذ على يد أرسطو.

[72] **Droysen**, Grundriß der Historik. Leipzig, 1882.

*__Droysen__, Précis de théorie de l'histoire, Traduction, présentation et notes par Alexandre Escudier, Paris, Humanités, les éditions du cerf, 2002.

الاختصار فإن هذا المؤلف يتضمن الخطوط العريضة التي شملتها نظرة درويزن إلى التاريخ، وكذا الأهداف التي كان يروم تحقيقها.

إنّ بحوث درويزن دارت حول إشكالية ارتبطت بسؤال أساسي يتعلق بالتاريخ وهل بالإمكان أن يصبح معرفة علمية مستقلة على غرار المعارف العلمية الأخرى؟ وبهذا فالذي كان يهم درويزن بالدرجة الأولى ليست الكتابة التاريخية في حد ذاتها كونها مورست منذ عهد ثوسيديكس، ولكن مسعاه اندرج في البحث عما من شأنه أن يضمن علمية هذه الدراسات، هذا الانشغال في حقيقة أمره لا ينفصل عن اهتمامات القرن التاسع عشر في ألمانيا عموما التي أراد الباحثون بموجبها توسيع التساؤل الكانطي إلى الميادين المعرفية الإنسانية، فهل للدراسات التاريخية أن تصل إلى نفس مستوى موضوعية العلوم الأخرى؟

في توطئة كتاب "مختصر نظرية التاريخ"، يعترف درويزن على الأقل في زمانه، بأنه ليس في إمكان الدراسات التاريخية أن تقدم إجابة مقنعة حول سؤال أساس هذه العلوم إذ يقول: << *إنْ سألناها (الدراسات التاريخية) عن أساسها العلمي المكين والعلاقة التي تنشئها مع الأشكال المعرفية البشرية الأخرى، وإن سألناها عن أساس إجرائياتها ومدى انسجامها مع المهام المنوطة بها، يظهر أنها ليست في مستوى إعطاء أجوبة مقنعة* >>[73]، إن الدراسات التاريخية حسب ما يرى، تتجاذبها تخصصات فكرية عديدة منها الفلسفية، واللاهوتية، والأدبية، والفيلولوجية، وحتى السياسية، ما يجعلها تنجذب أكثر نحو مركز ثقل هذه التخصصات وتبتعد عن مهمتها الحقيقية، أما على صعيد المناهج المتبعة، فإن نقده لها كان لأسباب تتعلق بالنظرة التي شكلها أصحاب هذه المناهج حول التاريخ عموما والحادثة التاريخية خصوصا، ومن هذا الباب كان نقده لما سماه بـ (منهج نقد المصادر) La critique (des sources)، وهو المنهج الذي يعد رانكه (Léopold Von Ranke)* (1795– 1886) من الذين مارسوه وحثوا بضرورة إتباعه، فالمنهج في علم التاريخ يتوقف في نظره على جملة معطيات تحدد مسارات الدراسة التاريخية، وهنا يقول:<< *إن معطيات البحث التاريخي ليست الأشياء الماضية (لأن هذه الأشياء أصبحت ماضيا) ولكن ما لم يفت، هنا والآن – سواء تعلق الأمر بالذكريات أو بالمعالم لما كان وما وقع في الماضي*>>'، التاريخ ليس علم الحوادث الماضية مطلقا، وإن كان يتناول الماضي، فإنّ موضوعه هو ذلك الماضي الحاضر برموزه وتعبيراته الماثلة أمامنا والموجودة بحوزتنا، وكأن درويزن يريد أن يقول لنا بأن موضوع الدراسات التاريخية هو الماضي الذي مازال حاضرا ويمكن الاطلاع عليه من خلال تلك التعبيرات والرموز التي خلفها لنا ومازالت قائمة، فملاحظة غياب الأساس على الصعيد النظري، والسعي من أجل الكشف عنه، إضافة إلى ضبط موضوع علم التاريخ، هذا ما كان

---

[73] **Droysen**, Précis de théorie de l'histoire, op.cit., p. 29.

* و من أهم ما ألف رانكه، سنة 1834. البابوات ، كنيستهم ودولتهم. Die römischen Päpste, ihre Kirche und ihr Staat

يعمل درويزن على تحقيقه. وبحكم تأثره بنجاح نموذج العلم الفيزيائي بسبب ميزات وجدها ملازمة له حيث يقول:<< *أنها تمتلك (العلوم الفيزيائية) وعيا واضحا بمهامها و وسائلها ومناهجها، ولكن كذلك حول الموضوعات التي تدرجها في ميدان بحوثها معتبرة من الجهة وفقط من الجهة التي تؤسس مناهجها*>>[74]، تأسيس المنهج لا يتم إلا من خلال تشكيل معرفة تتعلق بالمهام والوسائل وكذلك الغايات، وهذا ليس موجودا على الأقل في الدراسات التاريخية، لذلك ما سيقوم به هو تحديد إطار نظري عام يكون هو بمثابة الوسيلة المحققة لهذه المطالب، فمن هذه الزاوية يتحدث درويزن عن" نظرية التاريخ". **نظرية التاريخ** (L'Historik)*

الملاحظات التي وضعها درويزن في خصوص حالة علم التاريخ، وحالة العلوم الفيزيائية الرياضية، جعلته يفكر في وضع آلية نظرية تكون بمثابة النظرية العامة، التي ستتحدد بموجبها قواعد على المؤرخ إتباعها والالتزام بها لوضع "علم التاريخ" في سكة لا تختلف من حيث القيمة الموضوعية لنتائجه عن العلوم الدقيقة، وهكذا لنا أن نقول بأن برنامجه النظري ما سماه بـــنظرية التاريخ هو بالدرجة الأولى تفكير نقدي متواصل حول الممارسة العلمية التاريخية من جهة المنهج والمبادئ، أي هو نظرية علمية حول الممارسة التاريخية بحثا وتعليما واستثمارا في إطار المجتمع والثقافة، وكذلك علاقاتها مع العلوم الأخرى، والانسجام بينها وبين الموضوع الذي تدرسه، من هنا كان تعريف " نظرية التاريخ" موجبا لهذه الجوانب التي ما فتئ يشير إليها، فما يعني درويزن بـــ (نظرية التاريخ) ؟

في **المختصر** عرفها سلبا ثم إيجابا، فبالنسبة للجانب الأول قال << *إن نظرية التاريخ (l'Historik) ليست موسوعة العلوم التاريخية، ولا فلسفة (أو لاهوتا) للتاريخ، وكذلك ليست فيزياء* العالم التاريخي، وأقّل من ذلك ليست فنا شعريا** في متناول كل كتابة تاريخية* >>[75]. تفاديا للخلط الذي قد يقع فيه الممارسون للتاريخ، واضح من هذا الجزء ما ليس تاريخا. أما بالنسبة للجانب الموجب للتعريف فقد كان كالتالي: << *المهمة التي يجب عليها مواجهتها هي*

---

[74] **Droysen**, Erhebung der Geschichte zum Rang einer Wissenschaft, in Historik, p. 386. نقلا عن:**J.Grondin**, L'universalité de l'herméneutique, op.cit., p. 107.

*يعني هذا المصطلح باللغة الألمانية: ‹‹ مدخل لدراسة العلم التاريخي يتضمن فكرة أنه يجب منحها معايير الممارسة العلمية المستقبلية وضبطها.›› نقلا عن : Ulrich Muhlak, Johann Droysen : ‹‹Historik›› et Dilthey, _herméneutique, in Le paradigme herméneutique de Kant et Schleiermacher à op.cit., p. 286.

*إن فكرة الفيزياء" التاريخ العالمي موجودة في نص فلهلم فون هومبولت (حوالي 1818) ودرويزن لم يتمكن من الاطلاع عليها، تعليق مترجم كتاب " نظرية التاريخ": ص 48.

[75] **Jean Grondin**, l'universalité de l'herméneutique , op.cit., P. 49.

أن تكون أورغانون الفكر والبحث التاريخيين >>[76]. لا يفهم من نظرية التاريخ أو الإيستوريك على أنها فقط معرفة تهدف إلى تحديد الخطوات المنهجية يلتزم بها المؤرخ، فلو كان الأمر على هذا المنوال، لتحولت إلى مجرد دفتر منهجي يحتوي جملة الخطوات، كما أنه لا يريد أن يجعل من المنهج التاريخي نسخة للمنهج التجريبي. وبناء على ما كتب جان غراندان فإنّ درويزن يذهب إلى أبعد من الجانب المنهجي، << *إن ما أطلق عليه درويزن بـ الإيستوريك (...) سيكون لتبرير المعنى الخاص والإجرائية المميزة للبحوث التاريخية.*>>[77]، والمعنى يتضح أكثر متى تأكد أن مسعى درويزن يندرج في إطار أعم من مجرد الخطوات المنهجية، ذلك أنه يعترف بعدم إنجاز عمل نقدي مماثل لما قام به كانط حول العلوم الطبيعية << *إننا بحاجة كبيرة إلى كانط الذي لا يفحص بشكل نقدي المادة التاريخية، بل السلوك التاريخي والعملي إزاء وفي التاريخ* >>[78]، فالتفكير الإنساني لا يكتفي في نظر درويزن بتجميع المعطيات التجريبية، بل يخضعها كذلك إلى التصورات والمقولات، وأكثرها كلية مقولتا المكان والزمان[79]، فالعلوم الطبيعية تتعلق بالمستقر الذي يعرف بالحواس وهذا موجود في المكان، أما التاريخ فهو يتعلق بالزمان، وبهذا يفتح درويزن المجال أمام الفهم.

لقد اتخذ التأويل مكانة محورية في منهج البحث التاريخي الذي تحددت أهم جوانبه في نظرية التاريخ، لهذا اقتضت الضرورة الوقوف عند أهم خصائصه كما جاءت عند درويزن، إن التأويل كمنهج يبقى محافظا على نفس الأهمية التي تميز بها عند أصحاب المدرسة التاريخية عموما، وكما نبّه غراندان << *يجب أن نلاحظ، لأن هذا مُهْمل أحيانا، بأن درويزن تقريبا لم يتحدث أبدا عن الهيرمنيوطيقا*>>[80]، فالشائع في كتاباته من ناحية المصطلحات هو "التأويل" و"الفهم" (verstehen)، وهذا الأخير من جهته يكتسي أهمية خاصة في البناء المنهجي الذي حدده درويزن، إلا أنه لم يبق على الطريقة التي كان عليها عند بوخ << *إنّ الفهم الذي ميز العلوم الفيلولوجية عند بوخ، يصير المنهج المفضل للعلم التاريخي عند درويزن* >>[81]. وإذا كان الغرض الذي تسعى لتحقيقه الفيلولوجيا هو بالضبط إظهار المعنى الكامن في النص، فإن تمديد مجال التأويل إلى التاريخ كما هو عند درويزن يكون لازما في تقدير درويزن، << *فإن السلسة التاريخية يمكن أن تقرأ على طريقة النص أو كتابة تُفَك شفرتها*>>[82].

---

[76] Ibidem.

[77] **Ibid**, op.cit., p.109.

[78] **Droysen**, Historik, p. 424. نقلا عن **Jean Grondin**, L'universalité de l'herméneutique, Op.cit., p. 109.

[79] **Jean Grondin**, L'universalité de l'herméneutique, Op.cit., p. 109.

[80] Ibid., op.cit., p. 106.

[81] Ibid., p. 107.

[82] **Droysen**, Erhebung der geschichtevzum Rang einer Wissenschaft, in Historik, p. 386. نقلا عن **Grondin**, l'universalité de l'herméneutique, op.cit., p. 107.

إن الوعي بأهمية التاريخ حسب ما هو مؤكد في أعمال درويزن، يرمي بجذوره في أعماق تاريخ البشرية كون الرغبة في التاريخ ومعرفة الماضي يشكلان جزءً من الطبيعة البشرية << *إن الحس التاريخي راسخ في الطبيعة البشرية بشكل حيوي، (...)؛ وهذه الحساسية الطبيعية للتاريخ التي، والآن أيضا، تدل الطريق لدراساتنا وتمنحها شكلها*>>[83]، وباعتباره مطلعا على أهم الأعمال التاريخية التي ما فتئ يشير إليها في مؤلفاته، فإن قارئه يستشعر من خلال كتاب **ملخص نظرية التاريخ** وكأنه غير راض بها رغم أهميتها. ومرد هذا الأمر، يعود إلى مسألة تتعلق بالأولوية التي يجب على المؤرخ منحها لأحد الأمرين: إما الاهتمام بالمادة التاريخية وجعلها تتراكم عبر أفعال البحث والتنقيب وترك مسألة المنهج تحدد من تلقاء ذاتها كيفما كانت، ومن خلال ممارسة فعل الكتابة التاريخية، أو النظر في المنهج ثم الانطلاق في البحث بعد إتمام ضبط خطوطه العريضة، إن الاختيار عنده مؤسس على الأخذ بنموذج العلوم الدقيقة، التي لم تحقق نجاحها إلا بعدما تمت النظرة في الجانب المنهجي وذلك منذ عهد فرنسيس بيكون (1561 – 1651)، << *إنه ليستوجب عليه (علم التاريخ) أن يشرح غاياته ووسائله وأسسها؛ وبهذه الطريقة فقط يكون في مستوى مهامه الحقيقية؛ وهكذا فقط يستطيع – باستعمال تعبير بيكون – أن يتخلص من الأحكام المسبقة* >>[84]. علم التاريخ كان بهذا المعنى يعاني من نقص أو إهمال النظر في مسألة المنهج، وكان كذلك يعاني من التبعية، وتجاوز هذا الوضع لن يتم إلا إذا اعتمد المؤرخ على نفسه مثلما فعل العالم قبله، << *هل هذا النوع من الدراسات مؤسس بحيث يجرؤ ألا يعتمد إلا على نفسه، كما فعلت العلوم الطبيعية بهذا النجاح الكبير؟ ومتى(...) يبدأ المؤرخ في مباشرة هذا النوع الصعب من المشاكل، يستوجب أن يكون واضحا بالنسبة إليه أن المسلك التأملي ممنوع عليه منعا باتا، وبالأحرى عليه أن ينطلق من هذا النمط الأمبيريقي الخاص به، من القاعدة البسيطة والمضمونة لما يتطور في الزمان وأن العقل يرفعه إلى مستوى المعرفة* >>[85].

بهذه النظرة للمنهج كما يتحدد حسب مقتضيات العلم التاريخي، واستنادا كذلك إلى التأثير الذي خضع له من المجموع العلمي والفلسفي الذي كان سائدا في الأوساط التي تعامل معها دون أن يفقده ذلك حسه النقدي، فإن درويزن يعلن في "الإيستوريك" نوعية المنهج الواجب إتباعه في الدراسات التاريخية تحصينا لها من خطر التأمل. وحرصا على منحها موضوعية العلوم الدقيقة، فبشكل مباشر وصريح يعلن درويزن في الفقرة الثامنة من المدخل الوارد في المختصر عن الخطوة الأساسية وهي المزاوجة بين إجرائين: << *إن ماهية المنهج التاريخي هي أننا نفهم ولا نتوق عن البحث* >>[86]، وإن كان التأثير في هذا الجانب – كما ذكر سابقا – آت من بوك، فإن درويزن لا يعلن ذلك بل يبرر هذا الاختيار فلسفيا << *فهي* (يقصد

---

[83] **Droysen**, Précis de théorie de l'histoire, op.cit., p. 30.
[84] **Droysen**, Précis de théorie de l'histoire, Op.cit., p. 31.
[85] **Droysen**, Précis de théorie de l'histoire, Op.cit., p. 35.
[86] **Droysen**, Ibid., Op.cit., p.43.

إمكانية الفهم) *مشروطة بالطبيعة الفيزيائية – الأخلاقية للإنسان التي تترجم كل حركة داخلية إلى شيء قابل للإدراك بواسطة الحواس ويشكل انعكاسا لهذه الحركات الداخلية في كل تجلياتها* >>[87]. إن أثر شلاييرماخر ليس خفيا في هذه التأكيدات مع الفرق أن هاجس شلاييرماخر الأول انصب أكثر على عدم الفهم (La non compréhension) أو سوء الفهم (la mécompréhension). وديلتاي كذلك لا يختلف مع درويزن من هذه الناحية، لكن الأخير لم يجعل من الفهم فنا، ولم يصل إلى تأسيسه على علم النفس، وما يزيد في شدة التداخل بين درويزن وشلاييرماخر عندما يحدد الأول "الدائرة الهيرمنيوطيقا" بشيء من الخصوصية، لكنه خرج عن أفق شلاييرماخر<< *إن الفهم مثلما يجمع بين التركيب والتحليل يجمع بين الاستقراء والاستنتاج* >>[88]، فلا يمكن بحال من الأحوال فصل الحالة الخاصة عن الكل الذي تطورت بداخله، ولا الكل الذي يبقى عنصرا فاعلا في الحالات الخاصة << *الخصوصيات تدرك في إطار الكل، والكل في إطار الحالات الخصوصية*>>[89].

من الناحية المنهجية دائما، ظهر في محاولة درويزن رفض توجهين متصارعين، الأول هو التوجه الوضعي الذي لم يجعل من منهج علم التاريخ سوى منهجا لا يختلف عن منهج العلوم الطبيعية، إذ اعتمد في تفسيره الحوادث الماضية على تصورات العلوم التجريبية خاصة منها الحتمية التاريخية، والتوجه الثاني هو الذي جعل من التاريخ "فنا للسرد"، فالأول تبنى التفسير، بينما الثاني جعل من نقد المصادر طريقا لاكتشاف الحقيقة التاريخية وعليه أخلط كما رأى ذلك درويزن بين الحادثة التاريخية وما نعرفه عنها << *إن المدرسة النقدية* حسب درويزن، تبرر الأسبقية العلمية التي تمنحها لنقد المصادر بوضعها في نفس مستوى الحوادث التاريخية والمعلومات المحققة في المصادر*>>[90] والحل الذي يكون بمثابة تجاوزا يتمثل في << *أن نفهم عن طريق الاستكشاف المتواصل* >>[91]، وضمن هذا الحال، فإنه يؤاخذ على المنهج النقدي تشدده في الاعتماد على المصادر فقط، كما خصص صفحات معتبرة لما سماه بالمنهج التفسيري في كتاب "موجز نظرية التاريخ"، فجوهره كما يشرحه درويزن يتمثل فيما يلي:<< *إنا نريد أن نعرض بطريقة تاريخية ضرورة ما حدث وضرورة ما حدث هنا وبهذه الطريقة* >>.

---

[87] **Droysen**, Ibid., Op.cit.,p. 44.

[88] Ibid., p. 45.

[89] **Droysen**, Précis de théorie de l'histoire, Op.cit.,p. 4.5

* هي المدرسة التي تتخذ من نقد المصادر منهجا للدراسات التاريخية، و من أشهر أعضائها كارل فون روتيك (Karl (Von Rotteck (1775 – 1840).

[90] **Ulrich Muhlack**, Johann Gustav Droysen : ‹‹ Historik ›› et Herméneutique, in le paradigm de l'herméneutique, J.C.Gens, op.cit., p. 290.

[91] **J.G.Droysen**, Historik, p. 22, 328. نقلا عن **J.Grondin**, l'universalité de l'herméneutique, op.cit., p. 110.

لكن الإشارة التي لابد من وضعها هي أنّه مهما كان موقف درويزن ناجحا من الناحية المنهجية لأنه كما قال غادامير << *هو من حرر بمنهجيته الحادة التاريخ من غشاوته التجريبية، وأدرك دلالته الأساسية* >>[92]، وإضافة إلى مشروعه المتمثل في محاولة إيجاد أساس موضوعي لعلم التاريخ، فإنه لم يصل إلى مستوى البحث عن ذلك الأساس ضمن نظرية المعرفة، ما يفسح المجال واسعا أمام محاولة ديلتاي، كونه يشير هو بنفسه إلى هذا الغرض وذلك منذ بداية كتابه المهم " نقد العقل التاريخي، **مدخل لدراسة العلوم الروحية** الصادر سنة 1883.

[92] **غادامير، هانز جورج**، الحقيقة والمنهج، م.م.س، ص 300.